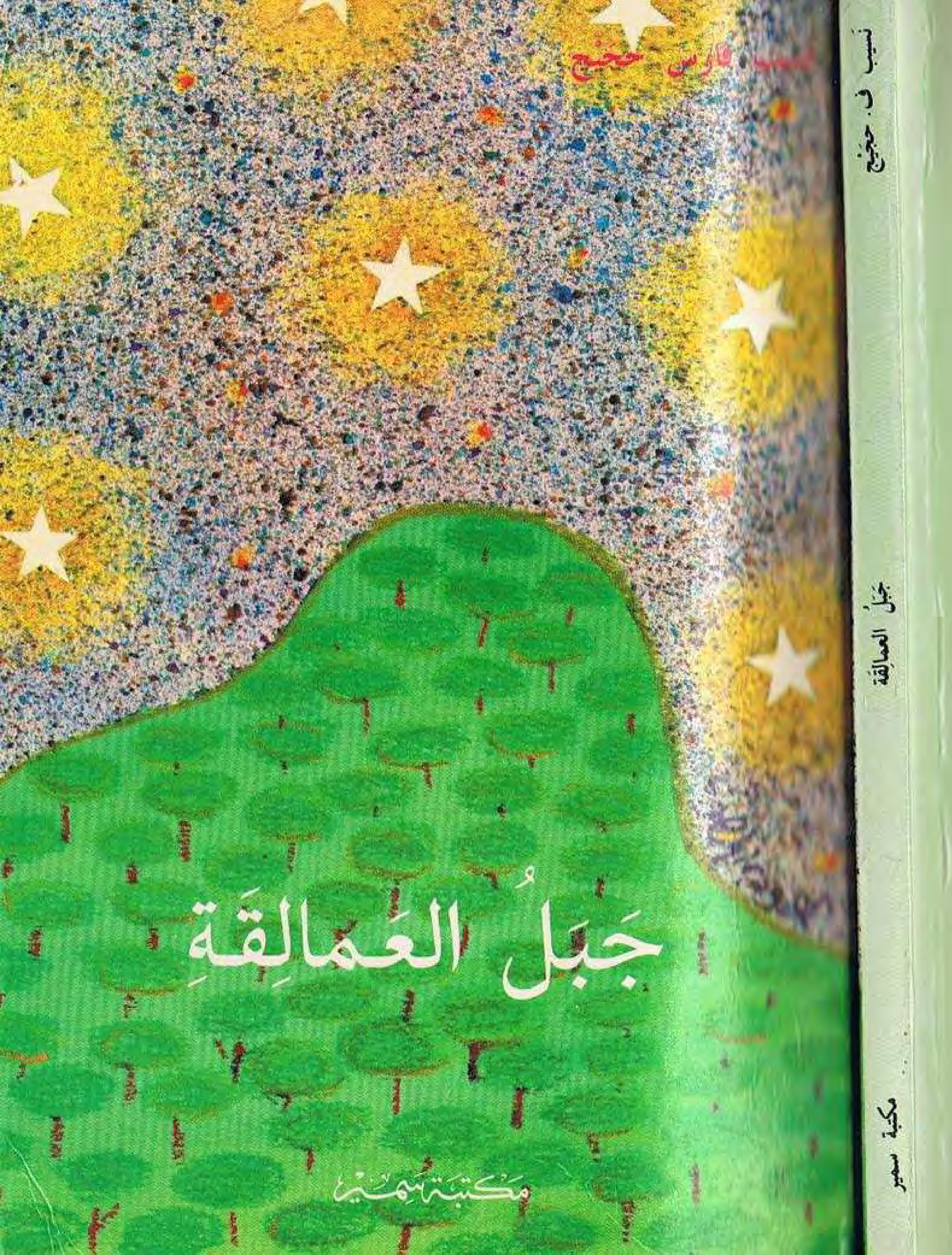


وذات يوم، بينما كانت تُنقِّل طَرْفها في جنبات الفضاء، إذا بها ترى طارئاً غريب الشكل، فخافت وأسرعت، مذعورة، لتلجأ الى كَنَف أختها الكبرى؛ فذهلت هذه للمفاجأة، وبادرت إلى القول لـ « سلمبا » : ما بك، يا حبيبتي، وما الذي يخيفك ؟

فأومأت « سلمبا » إلى البعيد، وقالت بصوت مُتقطِّع : أنظري .. أنظري .. هناك .. ألا تَرَيْنَ هٰذا الطارئ المُندفِع نحونا، مُحدّقاً إلينا بعينين كبيرتين، خضراوين؛ فمَنْ عساه يكون يا تُرى ؟ وماذا يريد منّا ؟ أنا خائفة، يا أختي.

الغلاف: شيراز عبّود

نَسيب فارِس حجَيْج

جَبَلُ العَمالِقَةِ

مكتبة سمير

الإهداء

إلى كُلِّ لُبنانيٍّ يَعْتَزُّ بِلُبْنانِهِ،
إلى كُلِّ مُحِبٍّ وقادِري وَطَنِ الأَرْزِ
أُهدي هٰذا الكتاب

نسيب

« يو » والعِمْلاق

« سلمبا » نجمة مِغْناج. إنّهـا صغـرى أخـواتهـا النجمات، ولهـا عليهـنّ دالّة لا حـدّ لهـا؛ ذكيّـة، لطيفة، تَسأل ما تشاء بأسلوب لا يَدَع مجالًا لعدم الاستجابة لِطَلَبها.

صوتها الناعم، فيه سِحر الشبّـابـة الصغيـرة التـي يعنيها ٱسمها، وهٰذا ممّا يساعدها على التأثير في مَشاعِر مَن يَسمعها، ويَحمله على الأخْذ بما تقول.

وذات يوم، بينما كانت تُنقِّل طَرْفها في جنبات الفضاء، إذا بها ترى طارئًا غريب الشكل، فخافت وأسرعت، مذعورة، لتلجأ إلى كَنَف أختها الكبرى؛ فـذهلـت هٰـذه للمفـاجـأة، وبـادرت إلـى القـول لـ« سلمبا »: ما بك، يا حبيبتي، وما الذي يخيفك؟

فأومأت « سلمبا » إلى البعيد، وقالت بصوت مُتقطّع: أُنظري... أُنظري... هناك... ألا تَرَيْنَ هٰذا الطارئ المُندفِع نحونا، مَحدِّقًا إلينا بعينين كبيرتين، خضراوين؛ فمَنْ عساه يكون يا تُرى؟ وماذا يريد منّا؟ أنا خائفة، يا أختي.

حَوّلتِ الأخت الكبرى نظرها إلى حيث أشارت « سلمبا »، وكأنّها عرفت ذاك الغريب، فآبتسمت وأرادت أن تداعب أختها الصغرى، فقالت لها: لا تخافي، يا صغيرتي، آطمئنّي؛ لعلّه عاشِق جذبه بريق عينيك، فقصد إلينا ليبوح لكِ بلواعج قلبه. فآحمرّ خدّا « سلمبا » الصغيرة، وتسارعت دقّات قلبها... وما أسرعَ وُلوج الحبّ البريء في قلوب الأبرياء!

ورأت الكبرى آرتباكها، فأسِفَتْ، في سِرِّها، لِعُقْبى المُداعَبة، إذ إنّها لم تكن تَحسَب أنّ الصغيرة ستصدّق قَولها، فخافت عليها من التعلّق بِخَيط حُبٍّ وهميٍّ. وأرادت أن تقطع لها هٰذا الخيط، فتابعت كلامها عن الغريب قائلة، بلهجة طُبِعت، هٰذه المرّة،

بطابَع الجدّيّة: ...أو لعلّه عملاق قاصِد إلى أُمّنا الشمس، ليأخذ شيئًا من غبار قُرْصها وينشره بركةً ونورًا في أنحاء الكَون.

تهيّبت الصغيرة ما قالته أختها، وتهاوى الحلم الذي كان قد حمل قلبها على جناحيه الخفيّين، فحملقت، مُحوِّلةً نظرها نحو الوافد المجهول، مُتمتِمة بصوت يَشوبُه القلق: عملاق! يطرأ علينا! ويجرؤ على محاولة التطاول لِيَمَسَّ قُرص أُمّنا!

وسمعت تمتمتها نجمة أُخرى رهيفة السَّمْع، فردّدت: عملاق! يطرأ علينا! ويجرؤ على محاولة التطاوُل، لِيَمَسَّ قُرص أُمّنا!

وتناقلت صدى هٰذه العبارة سائر النجمات، الواحدة بعد الأخرى، إلى أن ضجّت بأصواتهنّ السماء. فتنادَين، وتباحثن، وخَلَصْن إلى أنّ غازيًا عاتيًا يؤمّ مملكتهنّ للعبث بها...

وهٰكذا، عمّ الرعب كلّ فتيات الفضاء، سوى واحدة، هي الكبرى التي أشعلت فتيل الارتباك،

دون قَصْدٍ منها؛ ولذلك، أرادت أن تُصلح ما أفسدته، فصاحت بأخواتها: وَيْحَكُنَّ، ما بالُكنّ تستسلمن لخوف لا مُبرِّر له؟ ثمّ نادت: «يو»، «يو»، يا جذوة الإلٰهة، يا شعلة الذكاء وربيبة الحرّيّة، يا سَوط الشجاعة، يا عين الفضاء اللامتناهي، آنطلقي، وآستكشفي لنا خبر هٰذا الطارئ.

اِنحدرت «يو»، مُحوِّمة في الفضاء، مُيمِّمة شَطْر العملاق المتطاوِل إلى بساط النجوم. وبعد قليل، دخلت جوًّا عابقًا بشميم اللّبان والبخور. وكانت، كلّما ضاقت المسافة بينها وبينه آزداد عَبَق الجوّ طِيبًا.

وكأنّ العملاق أدرك كُنْهَ رسالة «يو»، فلوَّح لها، من البعيد، بعَلَم أبيض، وأطلق آبتسامة، حمل بريقها تموُّجات طمأنينة غمرت «عين الفضاء»، بسحرها، فهشّت له من بعيد. ولمّا وصلت، لم تجد مكانًا تحطّ فيه، قبالته، سوى البحر؛ وما إن غاصت

قدماها في الأبيض المتوسّط، حتّى رقص لها الموج، وآفترّ الشاطئ.

قالت له، بجدّيّة الرسول الشجاع الأمين: مَن أنتَ، أيّها المارد الجبّار؟ وأيّ هدف حداك على آقتحام ما عجزت عن بلوغه النسور والعقبان؟

قال: يظهر لي، أيّتها الحلوة، أنّك تضعينني في قفص الاتّهام، وأنا الحرّ العزيز الجانب، الوافر الشكيمة، والمُنزّه عمّا نَعَتِّني به؛ ولن أقول غير هٰذا، قبل أن تنتسبي وتُفصحي عمّا تريدين.

قالت: أنا «يو» عين الفضاء اللامتناهي؛ رأيناكَ، مِنْ عَلُ، أنا وشقيقاتي النجمات، تتعالى نحونا، وكأنّك تريد آقتحام مملكتنا، فجئتُ لأستطلعكَ.

سمع العملاق، هٰذا، فأبدى آبتسامة كآنبلاج الصباح، وقال: أنا لستُ ماردًا جبّارًا، كما نَعَتِّني، أيّتها الحلوة، لأنّ الكبرياء والتجرّد من الخير ليسا مِن شِيَمي. أفلم تَرَيْ كيف أنّني رفعت في وجهكِ العلم الأبيض، لأعبِّر عمّا في قلبي من محبّة وتَوق

للسلام؟ أنا لا أتطاول نحوكنّ إلاّ لنكون جيرانًا أحبّاء أوفياء.

حدّقت يو في وجهه، لتقرأ فيه ما ظهر وما خفي، وهي الخبيرة بِكَشْف النوايا، فإذا، على جبينه، آيات الصدق والأنفة والاعتزاز، وعلى شفتيه مَلامِح القوّة والحزم؛ أمّا في عينيه، فرأت دفقات من سِحْر، لم تعلم كيف حملَتْها على مدّ يدها لمصافحته. وبحركة لاشعوريّة من ذراعه، أزاح العملاق وشاحه الأخضر عن كتفه، ومدّ يده القويّة، الناعمة، وصافح يو.

حدّق الاثنان، كلٌّ في وجه الآخر، فقالت له: لا أعلم أيّ شيء يشدّني إليك، يا هٰذا...

أدرك العملاق أنّ يو قد وقعت في حُبّه، فقال لها، دون مُقدّمات: وسيكون لنا، على هٰذه الشواطئ، أولاد وأحفاد، وأحفاد أحفاد، يجوبون العالَم مِن أقصاه إلى أقصاه، ناشِرينَ، في كلّ أصقاعه، ألوية نورك المنشورة فوق أعمدة جبروتي،

مُضمَّخة بطيب بخوري، تُهزهِزها تموُّجات أثير مَحبّتنا، فيكون لمآثرهم، في بطون التواريخ، ثبات وصلابة الصخور، وإشراقة البُدور.

اِنتشت يو بكلامه الشاعريّ، وقد لمست فيه الصدق ونبل العزيمة، فآنتفضت مرتفعة فوق مياه المتوسّط، ولم يَسَعْها إلاّ أن تطبع على جبينه قبلة ناريّة، سرت حرارتها في جميع أوصاله. فغمرها بذراعيه القويّتين، وجذبها إليه، برفق، وطَبَع على خدّها قبلة زادتها إشراقًا، فقالت له بحنان، وقد اجتاحتها نشوة غريبة: أنتَ، آبقَ حيث أنتَ. أمّا أنا، فسأعود إلى فضائي، لآتيَ بِوَفْدٍ من أخواتي، فنوقّع، معًا آتّفاقَ وُدٍّ.

« مارانا » الحكيمة

في غياب « يو »، تجمّعت النجمات حول أختهنّ الكبرى، وناقشن موقفهنّ من العملاق، فقالت إحداهنّ: يجب أن نجمع صفوفنا، لنكون يدًا واحدة، في ردّ هٰذا الغازي، عن مملكتنا.

وقالت أخرى: ويجب أن نكون مُتيقِّظات، ساهرات، كي لا يفاجئنا أيّ طامع يريد الاعتداء على أمْننا.

وقالت ثالثة: بل يجب أن نُلقيَ درسًا قاسيًا، على هٰذا المُتطفِّل المُستبِدّ، ليعتبر به سواه.

وقالت الكبرى: لن تكون مملكتنا مسرحًا لأطماع مَن أَعْمَتْ بصائرهم الرغبة في التحكُّم في أُمورنا، وفي الاعتداء على حرّيّتنا وكرامتنا؛ وما دمنا

مُتّحِدات، ومُتّفِقات، فلن يستطيع أحد أن يتخطّى حدود مملكتنا.

فصفّق الجميع لهٰذا القول الذي نَعَتْنَهُ بالعَسْجَدِيّ!

وكان، بين هٰؤلاء النجمات، واحدة حكيمة، نيّرة العقل، ثاقبة الرأي، آسمها « مارانا ». وكانت قد أخذت الحكمة عن جدّاتها الحكيمات اللّواتي مسحتهنّ يد الخالق بزَيْت البَرَكة والتبصُّر، لدى خَلْقِهِ مصابيح السماء؛ فخافت على أخواتها من التسرُّع في الانفعال الذي، غالبًا ما يؤدّي إلى الندم، فرفعت صوتها، قائلة: على رِسْلِكُنَّ، أيّتها الشقيقات؛ إنّني أرى أنّ كلّ ما صدر عنكنّ، إنْ هو إلاّ تسرُّع في الشكّ بنوايا هٰذا القاصد إلينا، ورغبة في إثارة الحقد عليه. ولا أعلم متى كان الشكّ صالحًا لأنْ يكون أساسًا منطقيًّا للجزم بالحكم على أحد.

فقالت لها إحداهن: ألا تَرَيْنَ أنّ في آتّحادنا قوّة رادعة، أيّتها الشقيقة الحكيمة؟

فقالت « مارانا »: لا شكّ في أنّ القوّةَ كامنةٌ في الاتّحاد، شَرْط أن يكون المُتّحِدونَ صادقينَ في نُزوعهم إلى هدف واحد، لأنّ الشراذم المُتضارِبة الأهداف، ليست سوى عامِل ضعف، لا عامل قوّة.

أمّا قضيّتكنّ مع هٰذا الغريب، فصحيح أنّكنّ يد واحدة للتصدّي له، وأنّ هدفكنّ هو واحد، لٰكنّني لم أرَ أي مُبرِّر منطقيّ لما تعتزمنه ضدّه.

فقالت إحدى الخائفات: وما عساه يكون غَرَضُه، إذًا، من ٱقتحامه مملكتنا غير الغَدْر بنا؟

فقالت الحكيمة: ولماذا تجزمين، يا أختاه، أنّ نُزوعه إلينا هو ٱقْتحام، وليس رغبة في التقرُّب منّا، والتحبُّب إلينا. ثمّ، يجب ألاّ ننسى أنّ « أكثر الظنون ميون ».

فسألتها نجمة أُخرى: وما العمل، إذًا، أيتها الحكيمة؟

قالت: ننتظر عَودة « يو »، ونظر في ما ستقوله لنا، ثمّ نتّفق على قرار.

العَلَمُ الأَبيضُ والوِشاحُ الأَخضرُ

تناقلت النجمات ما قالته « مارانا »، فسادَ الفضاءَ صمتٌ ينزع إلى التعبير عن شَوقٍ إلى الطمأنينة.

وما هي برهة، حتّى أطلّت « يو »، ومَلامِح الارتياح بادية على وجهها المُشرِق، فصاحت بها الأخت الكبرى: ما وراءك، يا عين الفضاء؟

أجابت: عَلَم أبيض، نشرتْه الطهارة، ووشاحٌ أخضر، خاطَتْه يدُ الجَمال، وألْقَتْه على كتف المروءة.

وكان، بين النجمات، واحدة « ظريفة »، أرادت أن تُزيح الخوف والانقباض عن قلوب أخواتها، بمزحة تنشر جوًّا من الضحك بينهنّ، فصاحت

بـ « يو »: تابعي، تابعي، يا عين الفضاء، أيّتها الشاعرة الجديدة البارعة، تابعي حديثك، يا عاشقة العَلَم الأبيض والوشاح الأخضر، يا بيضاء الجبين، ويا خضراء العينين.

فتعالى ضَحِك النجمات لهٰذه الدعابة، وآفترّت ثُغورهنّ عن إشعاعات ملأت الفضاء الأعلى نورًا لم يشهده مِن قَبْلُ؛ وبلغت أصوات ضحكهنّ مَسامِعَ أُمّهنّ الشمس، فهشّت لهنّ، راضيةً، وآنعكست هَشاشتها، على كوكب الأرض، فتخلّجت أحشاؤه، وتخضخضت أوصاله، فتشقّقت فيه صخور، وتفجّرت ينابيع، وتطاولت أدواح، وثارت براكين، فَنَبَتَ بعض الجُزُر في البحار، وسُمِع صوت، فيه مزيج من مراس الصخور، وكَرَم الينابيع، وليونة الأماليد، وهدير البراكين، وحنين الجُزُر، يقول: « بوركتِ، يا « يو »، يا مَن مَسَّتْ كلمة منها، أوصال الأرض، فألهبَتْها حرارةً وحياةً». ثمّ أخذ هٰذا الصوت يتضاءل شيئًا فشيئًا، وهو يُردِّد: بوركتِ، يا « يو »، بوركتِ... بوركتِ...

ساد الصمت بين النجمات برهة، ثمّ آرتفع صوت إحداهنّ يقول: مَن تُراه يكون صاحب هٰذا الصوت الذي يبارِك « يو »؟

فقالت الكبرى: لعلّه جرم سَيّار يجوب الفضاء، وقد شاقَهُ ما جاء على لسان « الرسولة ». ثمّ، ما لنا ولهٰذا الصوت الآتي من وراء الغَيب؛ وآلتفتتْ نحو « يو » وقالت لها: أكملي الحديث عمّا رأيتِه في رحلتكِ الاستطلاعيّة، يا عين الفضاء.

وقَبْلَ أن تعود « يو » إلى الكلام، قالت لها « الظريفة »، بخباثة: وقولي لنا ما رأته عيناكِ، لا ما رآه قلبكِ، وإيّاكِ أن تكذبي، يا حلوة.

اِرتعشت « يو »، لدى سَماعها « يا حلوة»؛ إنّها الكلمة التي نَعَتَها بها العملاق، فتجاهلت ما قالته « الظريفة »، لتتغاضى عن شعور كاد يُحرِجها، فتابعت كلامها قائلة: أجل، يا شقيقاتي، رأيتُ عَلَمًا أبيضَ نشرَتْه الطهارة فوق قمّة مَبَرّات، ووشاحًا أخضر نسجَتْه يد الجَمال بخيوط الحياة، وألقتْه على

منكبين قويّين؛ رأيتُ جبينًا لا يعرف الانحناء إلاّ أمام الخالق؛ رأيتُ عينين تَنمّان عن حَزْم في ٱتّخاذ قرار، وفي أعماقهما تتلألأ مَشاعِل الذكاء، ولا عَيْبَ فيهما سوى أنّهما لا تشخصان إلاّ إلى الأعلى؛ رأيتُ قلعة مُحصّنَة بالشجاعة والتضحية والحِلم، وشممتُ أريجًا نَشرَتْه المحبّة بين ضلوع دمْيَةٍ خلقها الله لتكون مَحَطّ أنظار عُشّاق الخُلود.

فقالت الكبرى: أأفهم مِن حديثكِ أنّ العملاق لا يريد بنا شرًّا؟

- هذا ما أعتقدُه.

- فماذا يريد منّا، إذًا؟

- يريد مُصادَقتنا.

- وماذا تقترحين؟

أقترح عقد ٱتّفاق وُدٍّ، بيننا وبينه.

فقالت الكبرى: وما قول شقيقتنا «مارانا» بذلك؟

فقالت الحكيمة: اِتّفاقات المناسبات قد تكون، أحيانًا، سرابًا، وتغطية لما يكون قد خطّطه أبطالها الذين يُضمرون ويُنفّذون غير ما يكتبونه وما يُوَقّعون عليه، وهذا غَدْر يشين. أمّا الاتّفاقات التي من شأنها ترسيخ مصلحة مُتبادَلة، وقد أُوحى بها ضمير حَيّ، حُرّ، يتّسم بالشرف ويتحلّى بالتضحية المجّانيّة فتلك هي ٱتّفاقات يُعْتَدّ بها ويُعتمَد عليها؛ فعليكن بها مع هذا العملاق، لأنّ ما قالته عنه عين الفضاء، يوحي بكونه حرًّا، شريفًا، صادقًا. هذا، ولا بأس بالتحدّث إليه، حتّى إذا ما بِتْنا مُقتنِعاتٍ بصِدْقه، وبِطِيب نواياه، فعندئذٍ نقرّر وننفّذ ما ٱقترحته «يو».

دَعائِمُ الكِيانِ السَّليم

صفّق الجميع لهٰذه الفكرة التي لا مُحاباة فيها، وقُلْنَ للكبرى: اِقترحي أسماء الشقيقات اللّواتي عليهنّ أن يحادثنَ العملاق.

فقالت الكبرى، بَعْدَ تفكير: ما رأيكنّ بـ «يو» و«إيلاتا»، و«ديدا» و«عادا» و«بوشا» و«سميرام» و«براتا» و«مارانا»؟

تردّدتْ أصداء هٰذه الأسماء في الفضاء، مِن أقصاه إلى أقصاه، وسُمِعت آلاف الأصوات تقول: الرأي لأختنا الحكيمة «مارانا»...

فقالت الكبرى: تكلّمي، يا مارانا.

فتعالى التصفيق من كلّ جانب، ثمّ ساد الصمت،

ليقطعَه صوت مارانا قائلًا: إنّني أُهنّئ شقيقتنا الكبرى لوقوعها على هٰذه الأسماء الثمانية التي ترمز إلى ثماني دعائم يرتكز عليها كلّ كيان سليم.

فقالت «الظريفة»، جادّةً، هٰذه المرّةَ: ما هي الدعامة التي ترمز إليها «يو»، يا مارانا؟

قالت: إنّ «يو» ترمز إلى الذكاء، يا أختاه، ولولا ذٰلك، لما أُلحِقَ بها أمر السهر علينا جميعًا.

إنّها العين الساهرة التي ترى عُمْق أعماق الأمور.

إنّها رمز تلك القوّة التي تَدرُس وتُحلّل وتستنتج، ولٰكن، دون أن تُصدِر الأحكام.

الذكاء نفحة من نفحات روح الله، يَكْمُنُ، أحيانًا، في رأس طفل، ويُبادِر إلى الظهور في رأس يافِع.

إنّه الدليل إلى آكتشاف المجهول، وإلى قرع أبواب الآلهة.

إنّه مُستنطِق ماهر، يُتقِن أساليب المُحاوَرة،

لإزاحة الستائر عن الحقيقة، وإظهارها على سَجِيَّتها. الذكاء يَضَعُكَ، أحيانًا، أمام عقدة لا يأتي حَلُّها إلاّ على يدك.

إنّه منارة يَأتمّ بها مَن ضَلَّ طريقه، وتَراكَمَ، على ناظِرَيْهِ، ضباب الضياع.

إنّه الشعلة التي تُبدِّد ظلام الارتباك والتردُّد.

إنّه القوّة المُلهِمة التفاعُل في ما بين سائر ركائز صَرح البشريّة، لتوفير حياة مُثلى، خليقة بِمَنْ جعله الله سيّد الكائنات.

فقالت إحداهنّ: إنّنا نرى بعض الأغبياء يعيشون حياة أهنأ وأرغد مِن حياة يعيشها بعض الأذكياء، فما السرّ في ذلك، يا مارانا؟

قالت: الحياة الخليقة بسيّد الكائنات، هذا، إنَّما هي الحياة التي تلعب فيها المَواهِبُ لعبتها التي هي سبب وُجودها. الاتّكاليّون الذين يعتمدون على الحظّ، دون السَّعْيِ والكَدّ والصَّبْر، إنّما هم يعيشون

على هامش الحياة، مهما كانت هذه، هانئةً رغيدةً؛ والسرّ في ذلك هو أنّ رغدهم لم يكن ناتجًا عن جهد منهم. ومَن دَخَلَ إلى أعماق نفوسهم، يجد أنّهم لا يشعرون بلذّة فَوز، ولا بخيبة فَشَل، وهذا ما يُغاير سُنّة الحياة الواعية. أقصى سعادة أمثال هؤلاء، لا توازي لحظة واحدة يشعر فيها الذكيّ الناشط، بنجاحه في ما أجهد عقله فيه؛ وهذه هي مُقوِّمات الحياة الرغيدة الحقّ.

فقالت أخرى: أيكون الذكاء، إذًا، عاملًا أساسيًّا في تعبيد الطريق إلى السعادة؟

قالت: لا شكّ في أنّ الذكاء هو مِن أهمّ مُعبِّدي الطريق إلى السعادة، وأبرع واضِعي تصاميم سُبُل العَيش الرغيد؛ إنّه عملاق الفطنة، لكنّه قد يجرّ صاحبه، أحيانًا، إلى التهلكة، إذا أُسيء آستعماله. فَحَذارِ مِن وَضْعه في غير مكانه.

كانت مارانا تتكلّم، وصوتها يُدوّي في أرجاء الفضاء، فسمعه جميع سكّانه، فهلّلوا لـ «يو»

وَلِسَهَرِها عليهم. وتقدَّمت « الظريفة » وطبعت قبلة على جبينها، وقالت لها بكلّ آحترام: أرجو ألاّ تكون مزحتي قد أغاظتكِ. فآبتسمت لها « يو »، وقالت: بل إنّها أبهجتني، يا أختاه، لأنّها صادرة من قلبكِ الطَّيِّب، ولأنّها فَرَّجَتْ شيئًا من الغمّ عن شقيقاتنا، فلا عليكِ.

ثمّ علا صوت يقول: وما هي الدعامة التي ترمز إليها « إيلاتا »، يا مارانا؟

ولم يسع « الظريفة » إلاّ أن تتدخّل وتقول: بل نرجو أن تُحدّثنا مارانا عن كُنْهِ كلٍّ من رموز أخواتها الدعائم.

فقالت مارانا: حُبًّا وكرامةً، يا « ظريفتنا ». إنّ « إيلاتا » ترمز إلى المروءة بكلّ ما تنطوي عليه هٰذه الكلمة مِن مَناقِب.

فصاحت « الظريفة »: مَناقِب؟!

قالت: اجل، مَناقِب، أي مَزايا حَسَنَة؛ إنّها

الحماسة والعظَمة والأَنَفة؛ إنّها الكَرَم والشجاعة والحِلم، وبآختصار، إنّها دِرع الضعيف ورغيف الجائع وملجأ الملهوف.

فقيل لها: تُرى، أيكون صاحبَ مروءة، كلُّ مَن أشْبَعَ جائعًا وآوى ملهوفًا؟

قالت: العطاء الذي يكون جسرًا تنتقل، بواسطته، المنافع الذاتيّة، إلى أهراء المُعطي، دون أن يكون الدافع الحقيقيّ شعورًا إنسانيًّا، وتَوقًا إلى مُساعَدة وإسعاد الجائع والملهوف، لا يستحقّ صاحبه لَقَب « ذو مروءة ». والعطاء الذي يُمارَس للظهور، كعطاء المُرائينَ الذين يُظهرون للناس خلاف ما هم عليه، تكون المروءة براء منه.

المروءة لا تكذب ولا تُداجي.

المروءة تُعطي دون مِنّة.

إنّها مُذلِّلة العقبات التي تَحول دون الوصول إلى نجدة مظلوم وإغاثة منكوب.

المروءة لا تحقد ولا تُبغض، بل هي تحاول تحويل الحقد إلى تَسامُح، والبغض إلى محبّة.

المروءة لا تعتدي على كرامة أو على مالٍ أو على عِرْض، بل هي صَونٌ لها جميعًا.

إنّها عدوّة الذلّ، وربيبة الأَنَفَة.

إنّها عملاقة الرجوليّة، ولٰكنّها قد تَصِل بصاحبها إلى ما لا يرغب فيه، وأحيانًا، قد تـؤدّي بـه إلـى الهلاك، إن لم يُنِرْ طريقَها مشعلُ الذكاء.

وعاد التصفيق يُجلجِل في أحشاء الفضاء، ورَدّدت النجمات: عاشت «إيلاتا»، عاشت «يو»...

ولمّا هدأ الجوّ، عادت مارانا إلى متابعة حديثها، فقالت: أمّا «ديدا»، فإنّها ترمز إلى الطموح.

فسألت واحدة: وما هو الطموح، يا مارانا؟

قالت: الطموح هو الرغبة الشديدة، المُفرِطة، في الحصول على الأفضل من القوّة والشرف والمجد والثروة.

إنّه مزيّة النفوس الكبيرة التي لا تألو جهدًا في سبيل الاستفادة ممّا وَفَّره الله لها من إدراك، طلبًا لِعَيْشٍ رغيد، وسمعة مُشرِّفة.

فقالت نجمة مِغْناج: إذا كان رَغد العَيش مُؤمَّنًا مع الحَسَن، فلماذا إتعاب النفْس وإرهاقها للتَّوصُّل إلى الأحسن؟

فأجابتها مارانا: قالوا: «القناعة كَنْزٌ لا يَفنى». وأنا أقول لَكُنّ: «الطموحُ كَنْزٌ لا يَفنى».

فسألت أخرى: أتفضِّلينَ الطموح على القناعة، أيّتها الحكيمة؟

قالت: تكون القناعة كنزًا لا يَفنى، إذا كانت غير مَشوبَةٍ بالتَّواني، وعندما تُمارَس بحِكْمة ومَنطِق؛ والطموح يكون كنزًا لا يَفنى، إن لم يَتَّسِمْ بالطمع والاستئثار.

الاكتفاء بما تَيَسَّرَ نافعٍ وحَسَنٍ؛ والأنفع والأحسن هو الوصول إلى ما هو أوفر منفعةً وتسهيلاً لطُرُق الحياة.

المَرْكبات التي تَجرُّها الخيل والبغال حسنة ونافعة، وأحسن وأنفع منها تلك التي تسير بقُوّة البخار والوقود؛ هٰذه التي لم تكتفِ بِطَيِّ المسافات على سطح الأرض، كسْبًا للوقت لمزيد من النفع، بل طمحت الى شقّ ستائر الجو، فكان لها ما أرادت. وها هي تُعانِق، أحيانًا، أخانا القمر، حتّى إنها لَتُغازِل بعضنا على مقربة منّا، وقد تؤدّي إلى صِلات وثيقة بيننا وبين كوكب الأرض.

فآرتفع صوت يقول: ألم تُسبِّب بعض مُستحدَثات الطموح، شُرورًا كانت الخليقة في غِنًى عنها أيّتها الحكيمة؟

فقالت مارانا: ليس من طبيعة الطموح، أن يتسبّب بالشرور، لٰكنّه، إذا شابَهُ الطمع والاستئثار، فيكون، عندئذ، عامل شرّ وتعاسة، لا عامل خَير وسعادة؛ كما أنّ القناعة، أيضًا، إذا ما شابَها التّواني، فإنّها تتحوّل إلى عامِل آستسلام وذُلّ، والذلّ شَرّ.

الطموح لا يُحِبّ الانطواء والانعزال؛ إنّه عملاق الحركة والتقدّم، ولٰكنّه قد يجرّ إلى التقهقُر، إن لم يُحرِّكه الذكاء، ولم تَرْعَهُ المروءة. هٰذا بعض الكلام عما ترمز إليه «ديدا».

ثمّ تنحنحت مارانا وتابعت كلامها قائلة: أمّا أختنا «عادا»، فالدعامة التي ترمز إليها، إنّما هي الطهارة. وماذا عساي أقول عن الطهارة؟

إنّها زنبقة الحقول البعيدة عن أنفاس الأوبئة الأخلاقيّة.

إنّها السيف المُصْلَت فوق خيوط التردُّد والجبن، في تلبية نداء الضمير.

الطهارة ليست وليدة ضعف، بل هي وليدة قوّة نبيلة، وربيبة جَمال لاهَيوليّ.

إنّها صفيحة الحقّ الناصعة، وآبتسامة الفجر في أصفى أيّام الصيف.

إنّها سكينة الليالي، الناشرة ستائرها فوق الجرود العذراء.

إنّها حبّة البَرَكة المغروسة في قلوب الساجدينَ في هيكل الحُبّ الخالص.

إنّها نقاء ثلوج القمم الشَّمّاء التي لا يَصِلُ إليها غبار الدنايا.

وكما تتجلّى في قلوب الأطفال وعيونهم، كذٰلك تتجلّى في زُنود وحواجب الرجال الغَيارى على الصدق والشرف.

الطهارة لا تُقيم إلاّ في الضمير الحيّ الذي يأبى إلاّ أن يكون عين الله في الكَون.

الطهارة لا تُقيم في منازل الاستغلاليّينَ مُقتنِصي الفُرَص، لتحقيق رغائبهم على حساب الآخرين، ولا في قُصور مَن رَذَلوا القِيَم الأصيلة، وضيّعوا حلى إنسانيّتهم، فتمرّغوا في حمأة الخِزْيِ والعار.

إنّها بَسَمات الطبيعة الكامنة في وَشْوشة الساقية، وفي هدير الشلّال؛ في تغريدة العصفور وزعيق النَّسْر المُدافِع عن فِراخه.

إنّها غَرْسة الثقة التي زرعَتْها يد الله لتُثمِر الاطمئنان إلى سلامة المصير.

إنّها الأجنحة البيضاء التي ترفرف حول عرش الله، وتَنشر، في رِحاب جَنّته، أريج البهجة والرضى.

كلّ هٰذا يُؤهِّلها لأن تكون عملاقة التعايش بالألفة والمَوَدَّة والهناء، هٰذا المُثلَّث الواجب وُجوده، لسلامة السَّير على طريق السعادة التي يَنشُدها كلّ عاقِل.

وشاءت مارانا أن تنشر البسمة على ثغور شقيقاتها اللَّواتي، ربّما كانت نُفوس بعضهنّ قد ضاقت ذِرْعًا بسَماع الحِكَم، فصاحت: أنتِ، أنتِ، يا «سلمبا»، يا صاحبة الصوت الرخيم، أسمِعينا شيئًا من ألحانكِ.

فضجّ الفضاء بأصوات الاستحسان، وهتف الجميع: عاشت مارانا، عاشت سلمبا، عاشت سلمبا.

وساد الصمت، حتّى لكأنَّ، على رؤوس النجمات، الطيرَ. ثمّ سُمِع صوت رقيق، وكأنّه آتٍ

مِن عالَم غير منظور، وأخذ يعلو وينجلي شيئًا فشيئًا، عن نشيد يقول:

يا مَن يُعذِّبني بِسِحْر دَلالِه
إنّي، بِحُبِّكَ، هائِمٌ مُتَشَبِّث
أَنسِيْتَ أنَّكَ، يا حَبيبي، عادِل
وَأَرَقُّ مِن طَيْفِ المَلاكِ وَأَدْمَث
فَلِمَ التَّمادي بِالدَّلال وَبِالجَفا
وَإلى مَتى عَمّا يُعَذِّبُ تَبْحَث
رِفْقًا بِحالي وَآسْقِني كَمْ جُرْعَة
مِنْ خَمْرِ خَدِّكَ، وَالعَنا لا يَمْكُث

فطرب الجميع لنشيد «سلمبا»، وكانت «يو» أكثرهنّ طربًا وتأثّرًا...

بَعْدَ هذا، سَأَلَتْ نجمة: وما هي الدعامة التي ترمز إليها «بوشا»؟

قالت: إنّ «بوشا» ترمز إلى الجَمال، ولَيَسُرُّني أن أَستهِلَّ كلامي على الجَمال بالقَول المعروف: «الله جميل، ومَن أحَبَّ الجَمال، فقد أحبَّ الله».

وآستطرادًا، ومَنْ أحَبَّ الله فقد أحبَّ جميع ما أتاه وخَلَقَه. ومن المفيد أن تَعلَمْنَ أنَّ الجَمالَ لا يَلْطو وراء سِهَام اللِّحاظ، ولا في وَرْد الخُدود وتَثَنّي هيف القُدود، فحسب.

الجَمال لا يكون في إشراقة جبين ورشاقة عُنق، ونُعومة ولَون بَشَرَة، فقط، بل إنَّه يَتَجَلّى، أحيانًا، أيضًا، في شَوكة وَرْد، وفي تَصلُّب إرادة؛ في عَبْسة جبين وخشونة صخرة؛ في قَصْفة رَعْد، وعَصْفة ريح، وغَضْبة بحر.

الجَمال يَكمنُ، أيضًا، في كلّ ما يصون عِرضًا، ويُقوِّم آعوجاجًا، ويحفظ خلقًا.

في الصِّدْق والكَرَم والتضحية وآحترام الغير.

في براءة الأطفال.

في عينَيْ أُمٍّ تُهَدْهِدُ طفلها، وفي نَبْرة أبٍ يَزجر وَلَده عن الإتيان بِمُنْكَرٍ.

في وشوشة السَّواقي وفي أناشيد العَنادِل والحساسين والشحارير.

في الحُلل التي خلعها الخالِق على أنواع الزهور.

إنّه في بَسْمة حبيب وحنان قريب.

في لَفْتة أخٍ ووفاء صديق.

في كبرياء قمّة وتَواضُعِ وادٍ وآسترخاء مُنْحَدَر.

في حكمة عاقِل وهَذَيانِ مجنون.

إنه في كلّ ما هو حجّة في إرضاء ولَجْم تَهوُّر.

إنّه، والحَقُّ يُقال، عملاق الارتياح، وداعِيَة التلذُّذ بالحياة.

ولٰكنّه قد يجرّ صاحبه إلى كَمائن ينصبها الشرّ له، فحَذارِ كَمائِن الأشرار والحُسّاد والأنانيّين.

قالت مارانا هٰذا، وآلتفتت إلى ما حَولها، فرأت النجمات ينظرن إليها بنَهَم، فَراقَها لَمَعان عيونهنّ، فصاحت: ويتجلّى الجَمال، أيضًا، في بريق ثُغُوركنّ ولَمَعان عيونكنّ.

راقَ النجمات هٰذا الإطراء، فأخذن ينظرن،

الواحدة إلى وجه الأخرى، باسِماتٍ، فَرِحاتٍ، فصاحت بهنّ «الظريفة»: أجل، أنتنّ جميلات، ولٰكنِ آعلمْنَ أنّني أنا أجملكنّ، أليس كذٰلك يا مارانا؟

فآبتسمت لها مارانا وقالت: وها هو الجَمال يتجلّى، أيضًا، في الظرافة وخفّة الظلّ.

فقالت لها «الظريفة»: لا فُضّ فوكِ، يا أختنا الحكيمة. والآن، نرجو أن تُحدّثينا عمّا ترمز إليه «سميرام».

قالت: الدعامة التي ترمز إليها «سميرام» هي المحبّة. والمحبّة هي الرابطة التي تربط العالَم، بأجمعه، إلى خالِقه؛ ومن خلال ذٰلك، يحصل التقارُب بين جميع المخلوقات.

إنّها كاسرة شوكة الحِقْد والعداء.

إنّها جامعة الشَّمل، ومُوطِّدة الألفة التي لا بدّ منها لمُواصَلة الحياة في الكَون.

إنّها خَفْقة الحنان النابضة بين ضلوع كلّ كائن حيّ، من إنسان وحيوان؛ ولولاها لَما ذَبُلتْ عَيْنا أُمٍّ عند مَهْد رضيعها، ولَما تَكبّد أبٌ ما يُضني، ليوفِّر العيش الكريم لعيلته.

ولولاها، لَما آستأسدت العصفورة في الدفاع عن فراخها، ولما آستماتت اللبؤة والنَّمِرَة والذئبة في رَدّ الأذى عن صغارها؛ حتّى في دَوْلَتَي النبات والجَماد، تتجلّى المحبّة، أو فلنقُل يتجلّى نظام المحبّة؛ وهٰذا النظام هو، هو ما جعل الشجرة تمدّ أوراقها وثمارها بالنُّسْغ. وهو، هو ما طَيَّبَ الوردة لتنشر العِطْر في طَيّات أزرارها. ثمّ، ألا تَرَيْنَ معي أنّ تَجاذُب الأجرام السماويّة تَمَّ تَوازُنه كمَظْهر مِن مَظاهِر نظام المحبّة، الذي وضعه الخالق، فتآلفتْ، ولم تتآكل، ولم ينهش بعضها بعضًا؟

المحبّة هي الستار الشفّاف المُتسَرْبِلة به الأُلوهة.

إنّها بنت الأَزَل، وقد آقترن وُجودَها بوجود الله، فلا بداية لها ولا نهاية، لأنّها إحدى صِفاته السامية؛

فهي مُلازِمته ورَسولته الحاملة بَشائر السلام والخَير والبَرَكة، إلى جميع الكائنات؛ فهي، بِحَقّ، عملاقة الوئام والعيش بسلام.

ثمّ آلتفتت مارانا إلى ما حولها، وفتحت ذراعيها كَمَنْ يَتحفَّز لمُعانقة عزيز غال، وقالت: أمّا الدعامة التي ترمز إليها «براتا»، يا أَخواتي، فهي الحرّيّة، وكفى بِآسْمِها عنوانًا للكرامة والمَجْد.

ملأت هٰذه الكلمة أرجاء الفضاء، وتهامست النجمات: ماذا عساها تكون هٰذه الحرّيّة التي تثير إعجاب مارانا بهٰذا الشكل؟

عَلِمَتْ مارانا بما يدور في خَلَدِهِنّ، فقالت، مُجيبة عن تساؤلاتهنّ:

الحرّيّة، يا أخواتي، هي بهجة جميع الكائنات وكنزها الأعظم والأثمن.

إنّها تلك الهبة التي قدّمها الخالق إلى الطبيعة، فتقبَّلتْها، مغروسةً، مُتأصِّلةً في جذور كلّ مَن وما حَضَنَتْه مِن ذي حياة وغير ذي حياة.

الإنسان الحرّ هو مُلْك وسَيِّد نَفْسه، وهٰذا فَخْر له، لأنّه يَتصرّف بمؤهّلاته وبكلّ قواه كما يشاء هو.

الحيوانات في الغابات والبراري، تتحرّك كما يحلو لها.

الله أعطى الطبيعة الحرّيّة، ولا قُدرة لأحدٍ على آنتزاعها منها.

كلّ عناصرها تتحرّك ذاتيًّا.

الجبال والبحار تركّزت حيثما طاب لها.

جذور النبات عانقت باطن الأرض، فأطلّتْ رؤوس الأعشاب طليقةً، وهٰكذا أيضًا تمدّدتْ قامات الأشجار وتفتّحتْ براعمها وبرزت ثمارها.

مَن يستطيع مَنْعَ فَوَران بركانٍ إذا ثار؟

مَن يقوى على لَجْم الرياح إذا غَضِبَتْ وعَصَفتْ؟

مَن يقدر على تهدئة الزلزال عندما يُخضخِض باطن الأرضِ؟

بل، مَن يستطيع مَنْع هُبوب نسمة ناعمة، وحَبْس قَطرة ماء بِلَّوريّة، عن النزوح عن البحر وعن عودتها إليه؟

غَنَّتْها العصافير، ورقصتْ لها الأغصان، وهَزَج لها الشلاّل.

اِبتسم لها البَرْق، وهتف لها الرَّعْد.

الحرّيّة تأبى العبوديّة والاستبداد.

إنّها تَدين تَحكُّم القويّ بالضعيف.

كلّ هٰذا، لِتُشعِرَ صاحبَها بأنّ له مكانةً تحت الشمس.

إنّها قصيدة المجد.

إنّها عملاقة الشعور بالعِزّة والشَّرَف والرِّفْعة؛ ولٰكنّها، إذا تجاوزت حدّ آحترام السِّوى، آنقلبت إلى فوضى، وأصبحتْ وسيلة للهَدْم والإذلال وزَرْع الشِّقاق بين الناس، فحرّيّة المرء تنتهي عند بدء حرّيّة الآخَرين.

وبينما كانت مارانا تلتقط أنفاسها بعد أن أنهتْ حديثها الطويل عن الدعائم السَّبْع، دَنَتْ منها «الظريفة» وقالت لها: عافاكِ الله، يا أختاه؛ ثمّ آلتفتتْ نحو النجمات وقالت: بقي أن تُحدّثنا مارانا عمّا ترمز إليه هي، أي عن الحكمة.

فقالت الكبرى: إنّ تَواضُع مارانا يأبى عليها أن تتحدّث عن نفسها، ولذلك، أطلب من الدعائم السبع، أن يُبْدِيْنَ ما عندهنّ في ما يتعلّق بالحكمة وبتقديرهنّ لها، وليكن ذلك نيابةً عن سائر الشقيقات وتنويرًا لهنّ. أمّا أنا، فسأُبدي رأيي في النهاية؛ والآن، فلتبدإ الكلام «يو» رمز الذكاء.

فقالت «يو»: إنّه لَشَرَفٌ لنا، جميعًا، أن نتكلّم عمّا ترمز إليه أختنا الحبيبة «مارانا» ونرجو أن نُوفَّق إلى تَوفيتها جزءًا مِن حقّها. أمّا في ما يتعلّق بي، فالحكمة هي نِبْراسي ومُرشِدتي، ولولاها لكنتُ أُخفِق، مرّاتٍ كثيرةً، في الوصول إلى مبتغىً. صحيح أنّني نور ونَفْحة من نفحات الروح

المُحيية، كما قيل فيَّ، ولكنّني قد أكون، أحيانًا، لهبًا مُحرِقًا، إن لم يتغلغل زيت الحكمة في خلايا مَكامِني.

وقالت «إيلاتا» رمز المروءة: أمّا أنا، فصحيح أنّ كلّ المَناقِب التي أَعْنيها، هي نِعَمٌ مَنَّتْ علينا بها السماء لتضعنا على دُروب الكمال والسعادة، وصحيح أنّني دِرْع الضعيف ورغيف الجائع وملجأ الملهوف، ولكنّني قد أكون العَونَ على الضعيف والحابسةَ الرغيفِ والقاضيةَ على الملهوف وعلى كلّ مَن أحاول نُصْرتهم، إن لم تأخذ الحكمةُ بِيَدي.

وقالت «ديدا» رمز الطموح: واضح أنّني أُنزع، دائمًا، إلى الأفضل، ولكنّني قد أتخطّى حُدود الأفضل، فأرتمي في حُبّ الطمع الذي لا قرار له، إن لم تتداركني الحكمةُ بوقوفها الحازم في وَجْه مُغامَراتي المُتهوِّرة، أحيانًا، فهي إذًا، مُنقِذتي والنور الذي، على هَدْيِه، يُحفظ كياني ونشاطي.

وقالت «عادا» رمز الطهارة: كلّما آعترضتْ

طريقي إغراءات جذّابة، فإنّ أُختي «مارانا» تُسْرِع لِتُنقِذني مِن خَطَر مُحتمَل، فتُمِرُّ يدها الساحرة على بَصَري وبَصيرتي، فأرى ما يَكْمُن وراء تلك الإغراءات، من وُرود فَوّاحة، تارةً، وتارةً من أشواك مُجرِّحة، ومَهالِك مُميتة، فأنطلِق في الطريق الذي يُبقي على نقائي ونصاعتي ومكانتي، فلها شُكري الصادق.

وقالت «بوشا» رمز الجَمال: لقد عَلَّمتْني أختي مارانا أن لا أُصغي إلى الإطراء الذي يُخفي، في ثَناياه، الرغبة الصارخة في التلذُّذ بي، دون النظر إلى ما يؤذيني ويُشوِّهني. لقد علّمتْني الحكمة كيف أنتقي مَن يَستحقّني، ويَصلح لأن أُضفي عليه ما أستطيعه من سعادة ورخاء.

علَّمتْني أن أُسْعِدَ مَن أتجلّى فيه، لا أن أَجُرَّ عليه الوَيْل. علَّمتْني أن لا أَدَعَ الغُرور يدفعني إلى الكبرياء، وإلى أن أَظنَّ أنَّ المُعجَبينَ بي يتهافتون على إرضائي، إكرامًا لِسَوادِ عَيْنَيَّ فقط، لا لِغايات في نُفوسهم.

إنَّ مارانا تريدني على أن أُحافظ على كُنهي، لأبقى، بحَقٍّ، إحدى الصِّفات السامِيَة. فماذا أقول، إذًا، يا أخواتي، عن هٰذه الأخت الحكيمة، غير أنَّها أَهْل للثقة، بكلّ ما تأتيه وتُشير به؟ وما أَتمَّتْ «بوشا» كلامها، حتّى علا التصفيق من كلّ جانب. وقالت لها الأخت الكبرى: لقد أَحسنتِ، يا بوشا. والآن، فَلْنَسمعْ رأيَ رمز المحبّة.

فقالت «سميرام»: أمّا أنا، فقد عَلَّمتْني مارانا أن أزرع الحنان في قلب الأمِّ، والقوّة في ساعدَيِ الأب، والدِّفء في جَناحَي الأخ.

عَلَّمتْني أن أُخلِص لِصديقٍ وأن أُسامِح عدوًّا.

عَلَّمتْني أن أُنْميَ نبتة وَأُفتِّح بُرعمًا وأُفجِّر نبعًا.

عَلَّمتْني أن أكون الصِّلة الجامعة بين القِمّة والوادي، وبآختصارٍ، عَلَّمتْني أن أكون نَفْسي، بكلّ ما أَعْنيه من سلام وغيرة وتضحية. فهل مِن مُعلِّمة أعظم؟

فقالت «الكبرى»: لقد أحسنتِ، يا سميرام؛ ثمّ التفتتْ إلى «براتا»، وقالت لها: وما هو رأيكِ أنتِ، بمارانا، يا «براتا»، يا رمز الحرّيّة؟

قالت: لقد تَغنّى بي الشعراء والفنّانون والسياسيّون والعشّاق، وكلّ مَن رامَ الوصول إلى رغبة، صالحة كانت أو غير صالحة، وكنتُ الهدف المنشود، ومَوضِع آستقرار وثقة، لكلّ عَزيز رَفَعَ لواء الكرامة وآحترام الذات، حتّى إنّني أصبحتُ هاجس جميع الناس، وهٰذا مَنطقيّ. ولٰكنّني، بدون الحكمة، قد أتخطّى حُدودي، فأرتمي في مَهاوي الفوضى البعيدة عن الضمير الحيّ، وعن الإنسانيّة. فالحكمة هي حاضنتي الصالحة، ومُربّيتي الشريفة. فلها شُكري الخالص.

ولمّا آنتهت «براتا» من كلامها، قالت «الظريفة»: بقي أن تُبدي لنا أختنا الكبرى، رأيها بمارانا.

فقالت «الكبرى»: بَعْدَ كُلّ ما سمعناه، أرى أنّ

أختنا مارانا هي، حقًّا، دعامة الدعامات. ولذٰلك، فأنا أُباركها، وأُنصّبها رئيسة على الوفد الّذي سيُفاوض «العملاق» لِعقْد آتّفاق بيننا وبينه.

فقالت مارانا: أشكركِ، يا أختي، وأشكر كلّ شقيقاتي على ثقتهنّ بي؛ فعسى أن نتوفّق، أنا ورفيقاتي، بِعَمَلٍ يكون فيه خَيْرنا جميعًا.

فقالت «الكبرى» لـ «يو»: وأنتِ، يا عين الفضاء، تَعودينَ غدًا إلى العملاق، وتسألينه عمّا إذا كان مُستعِدًّا لآستقبال وَفْدنا المُفاوض، بَعْدَ غدٍ.

فقالت «يو»: بكلّ سرور، يا أختي.

ثمّ أَخْلَد الجميع إلى الراحة..

وساد الهدوء في طبقات الفضاء، فآستسلمت النجمات لِنَوْم عميق هنيء، وهنّ يحلمنَ بالسلام والطمأنينة، بعد تلك البرهة من الخوف والاضطراب.

نِمْنَ، ولٰكنّ عيونهنّ بقيت مفتوحة، تُرسِل أشعّة لمّاعة، يتغلغل نورها الضئيل، في جنبات الكَون،

ليكون سيفًا مشهورًا في وجه ناشر الظلام على دروب العشّاق، على الرغم من أنّ بعض هٰؤلاء ينشد الارتماء وراء الحُجُب. هٰكذا تنام النجمات، دون أن يغمض لَهُنَّ جَفْنٌ، فيبقين بهجة لكلّ ناظر وساهر.

ولٰكنْ، هناك نجمة لم تَنَمْ، إذ كانت تحلم بما لم يحلم به غيرها من سائر النجمات، سوى «سلمبا» الصغيرة التي كانت قد أوشكت أن تتخطّى حدود سِنّها، لِتُصدِّق أنّ عاشقًا جَذَبه إليها بريقُ عينيها.

كانت «يو» قد شعرت بأنّ شيئًا خَفِيًّا يشدّها إلى العملاق، فبقيتْ، تلك الليلة، ساهرة، تَدرُس وتُحلِّل كُنْهَ ذاك «الشيء الخفيّ»، وأخذت تتساءل: أتُراه الحُبّ؟ وهل تكون قد أَحبّت العملاق؟

وتذكّرتْ قوله لها: «... وسيكون لنا، على هٰذه الشواطئ أحفادٌ وأحفادُ أحفادٍ...» قالها بِحَزْم، وكأنّها قرار لا رجوع عنه، بل كأنّه واثق بأنّها تُحبّه وترضى به زوجًا، فتُنجِب له البنين والبنات...

حقًّا، إنّها لَشَجاعة، وجُرأة لا حدّ لهما، تَنمّانِ عن شخصيّة قويّة، أَريحيّة.

ولٰكنْ، هل يعتقد هٰذا العملاق الغريب أنّها تقبل به زوجًا، قبل أن تتحقّق من جدارته، ومن آستحقاقه لها؟

لقد رأته، في ذٰلك اليوم، جميلًا، قويًّا، طموحًا، جريئًا.

ولٰكنْ، هٰذا ما رأته بالعين المُجرَّدة، ولم يكن سوى جزء من حقيقته.

إذًا، فلتَطْرَحْ جانبًا، شُعور قَلْبها، مُؤقّتًا، وَلْتُعمِلْ بَصيرتها، عندما ستقابله، في الغد، علّها تقع على صورة ما بقي من حقيقته. وعند ذٰلك، تُقرِّر، إمّا الرفض، وإمّا القَبول.

ولٰكنْ، ما هٰذه الخفقة القاسية التي آعترتْ قلبها عندما مَرّتْ ببالها كلمة «الرفض»، وما تلك النشوة المُسعِدة التي غَمَرتْها مع كلمة «القَبول»؟

تُرى، هل هو يَستحقّها، إذًا؟

هٰذا هو الهاجس الذي أرَّقها.

وراحت تُشغِل نفسها بتحضير أسئلة، قرّرتْ أن تطرحها عليه، مثل: مَن أنتَ؟ أين تقيم؟ ما هو عملك؟ مَن هم ذووك؟ ماذا تنوي عمله في المُستقبَل؟ ما هو شعورك الحقيقيّ نحو النجمات؟... ألخ... ألخ.

وبعد أن آنْتهتْ من إعداد هذه الأسئلة وغيرها، شعرتْ بآرتياح، وطُمأنينة، فآستسلمتْ لِنَوْمٍ عميق.

في صباح اليوم التالي، يَمَّمَتْ «يو» شَطْرَ العملاق، والغِبطةُ تَزيد لَمَعانَ جبينها وهجًا، وتُضفي على بريق عينيها، وثَغْرها سِحْرًا.

وسرعان ما أحسَّ قلب العملاق بهذا التحرُّك، فَزَفَرَ، وحملتْ أنفاسُه تَموُّجات عابِقة بأَريج البخور والوزّال والقندول.

وشعرت «يو» وكأنّها تسمع، في داخِلها، هَمْسًا

يُحدِّثها بما يحلم به قلبها، فيغمر كيانها فرحًا.

ولم تَدْرِ كيف أَطلَّتْ على العملاق، لأنَّها طَوَتِ المسافة الطويلة التي كانت تفصل ما بينهما، بوقت حسبته قصيرًا.

وحَطَّتْ قُبالَتَه، في البحر، كما في المرّة الأولى، فَسَرَتْ أشعّتها بين ضلوع هٰذا الغَمْر الذي لاحَ أبيضَ، نقيًّا، صافيًا كأنقى مرآة، وقد «توسَّط» جزء منه بينها وبين العملاق، فدُعِيَ هٰذا البحر، منذ ذٰلك الوقت «البحر الأبيض المُتوسِّط».

أَلْقَت التحيّة على العملاق، فرحَّبَ هٰذا بها، قائلًا: أهلًا برسولة السلام، أهلًا بالحمامة البيضاء، أهلًا بكِ، يا «يو»، يا عين الفضاء الساهرة الأمينة.

اِحمرّ خدّا «يو» لدى سَماعها هٰذا الترحيب الشاعريّ، ولٰكنّها لم تُصْغِ كثيرًا إلى قلبها، بل فكَّرتْ بعقلها، فقالت له: أشكركَ على هٰذا الترحيب الحارّ، ولٰكنّني جئتُكَ، اليومَ، رسولةً من قِبَل شقيقاتي النجمات، لأسألكَ عمّا إذا كنتَ لا

تزال مُستعِدًّا لاستقبال وَفْدنا لمُفاوَضتكَ بشأن آتّفاق الوُدّ، الذي تَكَلَّمْنا عنه سابقًا. فما هو رَدُّكَ؟

قال: أنتِ تعلمين جيّدًا، يا آنسة، أنّني طالِبُ سِلْمٍ وأمانٍ، ويُسعِدني جدًّا أن أُوقِّع آتّفاقًا بهٰذا المعنى، مع مصابيح الكَون؛ ثمّ آبتسم آبتسامة ساحرة، تَنم عمّا في قلبه من حُبّ صادِق، وقال بِرِقّة: كما يُسعِدني جدًّا، جدًّا، أن أتقرّب منكنّ.

فشعرتْ «يو» بقشعريرة، قالت على أثرها: وكيف تَرى آلتقرُّبَ من مَصابيح آلكَون؟ فعادَ إلى الآبتسام، وقال، دون خَفَر: بأن أَطلب من أمّهنّ الشمس، يَدَ إحداهنّ، وهي التي شغلتْ بالي، وآحتلّتْ قلبي، وملأتْ كياني بِلُطْفها وذكائها وصِدْقها بآندفاعها في دُروب الغيرة على أَمْن وحرّيّة وكرامة سُكّان الفضاء.

سمعتْ «يو» هٰذا، وأدركتْ أنّه يَعنيها، فلم ترتبك، بل تجاهلتِ الانفعال، وقالت بكلّ رزانةٍ وكِبَرٍ: ويُسعِدنا، نحن أيضًا، أن يُطرح موضوع هٰذا

الاتّفاق، على طاولة المُفاوَضة. ثمّ تابعتْ: أَيُناسِبُكَ أن يكون التفاوُضُ غدًا؟

قال: أَجَلْ، أهلًا وسهلًا بِوَفْدِكُنَّ غدًا.

اقتلعتْ «يو» نفسها من حِضْنِ «البحر الأبيض المُتوسِّط»، دون أن تَطرح الأسئلة التي كانت قد أَعدَّتْها، وذٰلك، آستمرارًا لتَجاهُلها نوايا العملاق، وقالت له: إلى اللقاء، إذًا.

وعادت إلى الفضاء الأعلى، فإذا النجماتُ ينتظرنَ عودتها، كما تنتظر فراخ الطَّير عَودة أُمّهنَّ بما يُغذّي أجسامهنّ ويُبهج قلوبهنّ، فصاحت «الظريفة»، ضاحكةً: ها قد عادت العروس؛ فأسرعت «سلمبا» الصغيرة لترتميَ في حِضن أختها الكبرى التي بادرت إلى القول: ما وراءكِ، يا عين الفضاء؟

قالت: غدًا، يستقبلنا العملاق، للتّفاوُض في شأن الاتّفاق.

فقالت «الظريفة»: في شأن الاتّفاق، فقط؟

فٱرتعشتْ « يو »، وقالت في نَفْسها: تُرى، هل عَلِمَتْ هٰذه اللَّعينة أنّـه سيطلـب يـدي؟ وقَبْـلَ أن تُجيب نَفْسها عن هٰذا التساؤل، تابعت « الظريفة » كلامها قائلة: ألم يَدْعُنا، مثلًا، إلى وليمة أو إلى حفلة راقصة؟!

فضحكت النجمات، وضحكت « يو »، وسُرِّيَ عنها.

فقالت الكبرى: لِيَسْتَعِدَّنَّ الوفد المُفاوِض للذهاب غدًا، إلى حيث يلتقي العملاق، بقيادة أختنا الحكيمة « مارانا ». ولتكن « يو » هي المُرشِدة إليه.

★ ★ ★

وَلْنَعُدْ إلى العملاق، لنرى ماذا كان شعوره إثر لقائه « يو ».

فبَعْدَ ذهابها، وقف مُنتصبًا ٱنتصابته الجبّارة، وأجالَ نظره في أطْراف الكون، وقال: إيه، أيّها الكون الرحيب، العظيم، كُنْ شاهدًا على أنّني أحببتُ « يو » حبًّا صادقًا، وعلى أنّني مُصمِّم على

أنّها ستكون زوجتي، فيأتي يومٌ، أقبض فيه على ناصية جميع المَرْئيّات فيكَ؛ أمّا غير مَرْئيّاتك فسأسْتلُّها، لأُبْرِزها جَلِيَّة واضحةً لكُلّ ذي نظر، خاضعةً لسُلْطاني، وتحت تَصرُّف أحفادي، فيُوزِّعونها خَيراتٍ يستفيد منها سائر أبناء البشر.

وخطرت بباله « يو »، ولاح لمُخيّلته طَيْفها العجيب الساحر، فتسارعت دَقّات قلبه، وتَفجَّرت، على طَرْقها ينابيعُ فُرات؛ ثمّ راحَ يُناجيها هامسًا: أيّتها الملكة المُتربِّعة على عرش النور، يا ذات القوام المشوق، والعُنق الذي يُنافِس جبينها نعومةً ولَمَعانًا، شفتاكِ القرمزيّتان مَصْدَرُ عَسَلٍ ربيعيّ، خَدّاكِ لَوَّنهُما الخالِق بِأَدَقِّ ريشة، وبأنقى وأجمل الورود والزنبق والياسَمين؛ عيناكِ تَنازَعَتْهما زُرْقَة سماءٍ صافيةٍ، وٱخضرارةُ أرزةٍ سَرْمَديَّةٍ؛ شَعركِ الذهبيُّ المُسدَلُ على كتفيك أشبهُ بالخُيوط التي حيكَتْ بها قلوب الآلهة، حاجباك سَيفانِ سُلّا في وجه آلهة الظُّلمات، وأُصْلِتا فوق أعناقِ جبابرة الكيدِ والغدرِ

والبؤسِ؛ اِبتسامتُكِ الساحرة الكاشفة عن نَظيم من اللؤلؤ الأبيض النقيّ الباهر، تُعيد إلى اليائس أَمَله وإلى البائس سَعْده وإلى العاشق بَلْسَمة جروح قلبه، وإلى الضائع مَنار دَرْبه؛ عقلكِ النَّيِّر وأمانتكِ أَهَّلاكِ لتكوني عين الفضاء الساهرة الأمينة؛ مَحبَّتكِ الصادقة وعِزَّة نَفْسكِ دفعتاكِ إلى التضحية براحتِكِ في سبيل راحة أخواتكِ.

ثمّ نظر إلى الأفق البعيد، وكأنَّه يَستلهمه المزيدَ من الكلام عن حبيبته، وقال: عندما لامستْ قدماكِ مياه البحر، يا حبيبتي، اَفْتَرَّ ثَغْرُه، واَنتَشَتْ أحشاؤه، واَرتكضتْ كنوزُه، وأَطلّتْ أسماكه، الكبيرة منها والصغيرة، لترى مَن هي هٰذه الزائرة الساحرة التي أَنْسَتْها، ساعتئذٍ، مَبدأ تَنازُع البقاء، بل لترى ملكة جمال الكون، وسلطانة محبّة السماء؛ فَمَنْ لي بكِ، يا «يو»، تُصغينَ إلى إيحاء قلبكِ، وتستجيبينَ لحنين ونداء قلبي؟

أجل، سأطلب يدكِ من أمّكِ الشمس، فهي لن

تتردّد في تلبية طلبي، لأنّني رَبيبها، ولأنّها تَعْلَم جَيّدًا أنّنا صِنْوانِ في كلّ المَجالات، يليق أحدنا بالآخَر...

أمّا «يو»، فكانت، في طريقها إلى الفضاء الأعلى، قد مرّتْ بِقَزَعاتٍ من السَّحاب، تتلاحقُ مُتسارِعَةً، فأَوْدَعَتْ كلَّ واحدة منها، قُبْلَةً، على أن تَنقلَها تَموُّجاتُ أثيرِها، لِتَطْبَعَها، حارّةً، على جبين الحبيب...

وَمَرَّتِ القَزَعات بالعملاق، فشعر بنشوة غريبة، وكأنّه أَحسّ بما كانت تَحْمله من «رسائل»، فأخذ يحلم بِعُرْسٍ تهتزّ له أرجاء الكون...

الاِنْطِلاقُ

في ضُحى اليوم التالي، ٱصطَفَّت النجمات المُفاوِضات: « مارانا » على رأسهنّ، تَليها « يو »، ثمّ « إيلاتا »، ثمّ « ديدا »، « عادا »، « بوشا »، « سميرام »، وأخيرًا « براتا ».

وقبل أن يتحرّكن، سُمِعَ بكاء مَكبوت؛ إنّها « سلمبا » الصغيرة. فسألتها « الكبرى » عمّا بها، فقالت، بِغُنْجٍ : أُريد أن أذهب معهنّ لرؤية العملاق. فٱبتسمتْ لها « مارانا »، وأسرعت فأَخذتْها، بحنان، بين ذراعيها، وقالت لأختها « الكبرى »: لا بأس، يا أختي، أرجو أن تسمحي لها بمُرافَقتنا؛ هي نزهة تُرضيها وتَروي غَليل فُضولها. فلم يَسَعِ « الكبرى » إلاّ أن قالت: حسنٌ، فليكن لها ذٰلك.

ثمّ ٱنطلقت « العملاقات »، مُحوِّمات، الواحدة إثر الأخرى، قاصِدات ديار العملاق.

عندما بَلَغْنَ جوّ الأرض، وَجَدْنَهُ عابقًا بشميم البخور والمِسْك والصنوبر، فقالت « سلمبا » الصغيرة لـ« مارانا »: ما هٰذه الرائحة الذكيّة، يا أختاه؟ فقالت لها « مارانا »: لعلّها رائحة الطِّيب الذي يَتطيّب به العملاق. فقالت الصغيرة: ليتنا نحصل على شيء منه لدى عودتنا. فقالت لها « مارانا »: سنرى، سنرى.

حَطَّتِ النجمات التِّسْع، في « الأبيض المُتوسِّط »، قُبالَةَ العملاق، وحَيَّيْنَه، فَرَحَّبَ بهنّ بكلّ لُطْف. ولمّا رأى « يو » بينهنّ، قال: لا شكّ بأنكنّ النجمات المُفاوِضات بشأن ٱتّفاق الوُدّ.

فقالت « مارانا » رئيسة الوفد: أجل، أيّها العملاق، فما قولك؟

قال: يُسعِدني أن أقول إنّني مُستعِدّ لأن أُوقِّع

معكنّ هٰذا الاتّفاق، فهل لديكنّ شروط تُمْلينَها عليّ؟

قالت: نريد أن نعرف، أوّلًا، ما هو الهدف الحقيقيّ الكامِن وراء رغبتك في مُجاوَرتنا.

قال: هل أَفهم من كلامكِ أنّني مُتّهَم بآرتكاب خطإ ما؟

قالت: لا، لا، ولٰكنّ التوضيح والصراحة، لا بُدّ منهما.

قال: لا هَدَف لي سوى المُسالَمة، يا آنسة.

ورأت «يو» أنّ الفرصة سانحة لإشباع فُضولها، فقالت لـ«مارانا»: أرجو أن تسمحي لي بأن أسأله عمّا إذا كانت هٰذه المُسالَمة تعني شيئًا آخر، غير الاتّفاق الذي جئنا من أَجْله.

فعَلِمَ العملاق ما كان يَدور في خَلَدها، فقال: بلى، إنّها تعني شيئًا آخَرَ.

قالت: وما هو؟

قال: التقرُّب منكنّ.

فقالت «مارانا»: وكيف ذٰلك؟

قال: بالزَّواج مِن إحداكنّ.

فآحمرّ وجه «يو»، وعادت «مارانا» لتقول له: وبهٰذه السهولة؟

قال: بالمرور بأُمّي بالتَّبَنّي، أُمّكُنّ الشمس.

فظهر التعجُّب على وجه «مارانا»، ولٰكنّها قالت بهدوء: حسن، حسن، سنرى.

ويظهر أنّ سمكةً داعبتْ قَدَم «سلمبا» الصغيرة، فخافت هٰذه، وآرتعدت، وكادت تَهْوي في البحر، لو لم يَتَداركها العملاق، بسرعة، بذراعه القويّة. فسُرَّت «إيلاتا» رمز المروءة، لهٰذه المُبادَرة، ورأتها فرصة مُناسِبة للاطّلاع على مَدى تقديره للأمور، فقالت له: أنا «إيلاتا» رمز المروءة، لقد سَبَقْتَنا إلى نَجْدة أختنا الصغرى، فلماذا؟

قال: المروءة من شِيَمي، يا آنسة، فكيف لا أَهبّ

إلى نَجْدة هذا المَلاك البريء؟ وتابَعَ كلامه قائلًا:
المروءة نار في ضمير صاحبها، لا يُزْكي سَعيرَها سوى الشعور بحاجة الغير إلى دِفْئها؛ إنّها مَزِيّة مغروسة في طبيعة كيان صاحبها، وجَوهره، لا يستطيع تَجاهُلها مهما عَظُمت التضحيات.

وقالت له «ديدا»: أنا «ديدا» رمز الطموح. لقد أَجَدْتَ الكلام عن المروءة، فما قَولكَ بالطموح؟

قال: الطموح زيت مُتغلغِل في خلايا جميع الصِّفات، حتّى الخامِلة منها، يَدفع بصاحبه، إمّا إلى التحليق في أجواء النجاح والمجد، وإمّا إلى الانحدار إلى دَرَكِ الفشل والخِزْيِ.

وقالت «عادا»: وأنا «عادا» رمز الطهارة، فما قولكَ بها؟

قال: الطهارة صفحة نَيِّرَة في كتاب الحياة، وطوبى لِمَنْ يتحلّى بها.

وقالت «بوشا»: وأنا «بوشا» رمز الجَمال، فما قولكَ بالجمَال؟

قال: الجَمال هو أحد أسباب إسعاد الإنسان؛ إنّه كلّ ما يَستسيغه ذَوْق ويَستصوِبه مَيْلٌ؛ ولربّما سَعدتِ بما تَرَيْنَه جميلًا، وهو، في الحقيقة، ليس كذلك. ولكنّ الجَمال يكون، أحيانًا، سببًا لإتعاس صاحبه ولتَعْريضه للهَوان، عندما يلتقيه أَنانيّ لا يَهُمّه مِن الدنيا سوى إشباع نَهَم أهوائه.

وقالت «سميرام»: أنا «سميرام»، رمز المحبّة، فما قولكَ بها؟

قال: وهل يستطيع أحد أن يُوْفِيَ المحبّة حَقّها، إذا حاول الكلام عنها؟ إنّها الفكرة الأولى في ضمير الله، والدافع الأوّل في تَحرُّكه لِخَلْقِ الكَون وما فيه؛ إنّها لمسة الحنان النابعة من قلبه تعالى، والقدرة الرقيقة، العنيفة التي لا يستطيع مُقاوَمتها. وهي، هي التي وَسَمَتْه بطابِعَ العَدْل والرحمة، إنّها الرابطة الجامعة في ما بين سائر المُجتمَعات، حتّى في ما بينكنّ أنتنَّ سكّان الفضاء، ولولاها لما تَكَبَّدْتُنّ، اليومَ، مَشاقَّ الوصول إليّ.

وقالت « براتا »: وأنا « براتا » رمز الحرّيّة، فما قولك بها؟

قال: الحرّيّة! الحرّيّة! إنّها هاجسي، أتعشّقها، ولا أستطيع العيش بدونها. إنّها الهبة الغالية التي أنعم اللهُ بها على جميع الكائنات؛ عَدُوُّها الوحيد، هو الإنسان الأنانيّ، وكلُّ مَن سار على وَتيرته مِن عالَم الحيوان.

قالت: وهل يكون الإنسان أقوى من الحرّيّة؟

قال: الحرّيّة الباطنيّة هي مُلْك صاحِبها، لا يستطيع أحد انتزاعها منه، أو المَسّ بها؛ والقويّ والضعيف يتساويان في آمتلاكها. أمّا الحرّيّة الظاهريّة، فقد تُحتَجَز، لمأرب خاصّ. ورُبَّ أسد قويّ، أو عصفور ضعيف في قفص، بل رُبَّ إنسان مُذنِب أو بريء حُجِز في سجن؛ ولٰكنّ الحاجز لا يستطيع مَنْع الأسد من أن يحلم بالعودة إلى غابته، ولا أيّ سجين من التَّوْق إلى الهواء الطَّلْق.

ثمّ تابع العملاق كلامه قائلًا: والآن، هل تسمحن لي بأن أكون السائل؟

فقالت له « مارانا »: يَحقّ لكَ ذٰلكَ، فآسألْ ما تريد.

فالتفتَ إلى « يو »، وقال لها: وأنتِ، يا آنسة، إلى ماذا ترمزين؟

قالت: أنا أرمز الى الذكاء، فما قولكَ به؟

قال: الذكاء هو المَلِكُ المُتربِّع على عرش التوجيه. إنّه يَدخل إلى أعماق الأُمور، ليُحلِّل ويَستنتج ويُوجِّه. إنّه البرعم الذي يَتفتّح عن زهور زاهية، وثمار شهيّة تُبهج القلب. وتُغْني الروح، أحيانًا، وأحيانًا يَتفَتّق عن سُموم تُضْني القلب، وتُميت الروح، وأُعيذُكِ بالله من هٰذا.

الذكاء مَنارَة تُرشِد السفينة المُتخبِّطة في صَخَب الأمواج، إلى الميناء الأمين. وقد يَزُجُّها، أحيانًا، في لُجَّة لا تَرحم. وهٰكذا، إن لم تَرْعَه الحكمة، آنقلب إلى ضالٍّ ومُضِلّ.

في هٰذه اللحظة، آرتفع صَوت ناعم مِغْناج. إنّه صوت « سلمبا » الصغيرة.

لقد ظَنّتْ « سلمبا » أنّ أحدًا لن يأتيَ على ذِكْر أختها « مارانا » التي تُحبّها حُبًّا جَمًّا، فقالت للعملاق: إنّ أختي « مارانا » ترمز إلى الحكمة، فما قولك بها، أيّها العملاق؟

سُرَّ العملاق بغيرة « سلمبا »، على أختها، فآبتسم لها، وقال: الحكمة، يا صغيرتي، هي الإصبع الناعمة، الدافئة التي تُصحّح تَحَرُّك جميع ما ترمز إليه شقيقاتك هؤلاء؛ كلّ الفضائل لا تبلغ غاية الصلاح، إلاّ بِمِلْح الحكمة وإكْسيرها؛ إنّها الناصحة الواعية الأمينة. فعليكِ بالسَّير على خطاها، يا سلمبا، لتبلغي أعلى درجات ما يحبّه الله.

فقالت له، بشيء من الدالّة والحياء: وهل تَملك أنتَ مِلْح الحكمة وإكسيرها، أيّها... الصديق؟

قال: لكلٍّ من شقيقاتك، بما يرمزن إليه، مقام مُميّز، في أعماقي؛ ولولا ذلك، لما آستطعتُ العَومَ في خِضَمّ هذا العالَم الثائر الراكض وراء المنافع الذاتيّة، دون هوادة، ضاربًا، أحيانًا، عَرض الحائط،

بالقِيَم، وبكلّ ما يقف حائلًا بينه وبين غايته، شريفة مُحِقّة كانت، أو غير شريفة مُحِقَّة. وأنتِ، يا صغيرتي التي أُكنّيكِ برمز البراءة، لكِ، أيضًا، مقام عندي.

سُرَّت « سلمبا »، وراحت تفرك يديها، تعبيرًا عن رضاها وآبتهاجها.

أمّا « مارانا »، فقالت للعملاق: بقي أن تقول لنا، الآن، مَن أنتَ، لنعرف مع مَن سنُوقّع الاتّفاق.

قال: أنا سفير جنّة الله على الأرض؛ أنا رمز خلودها، وخازِن طُيوبها، وظِلّ سِدْرَتها؛ أنا آبن حرّيّتها وحاضِن كرامتها؛ أنا حليف المَجْد، وأليف الرفعة، وحمامة السلام، أنا جبل البخور.

ظهر الارتياح والرضى على وجوه المُفاوِضات، وسُرِّيَ عنهنّ هَمُّ التشكُّك في حقيقة نوايا هذا العملاق.

فقالت له « مارانا »: لقد أدخلتَ السرور

والاطمئنان إلى قلوبنا، يا جبل البخور، ولم يبقَ سوى أن تكتب لنا «يو» نَصَّ الاتّفاق كي نُوقِّعه.

وللحال، تناولت «يو» ورقة وقلمًا، وكتبتْ ما يلي:

فريق أوّل: كواكب الفضاء.

فريق ثانٍ: جبل البخور.

يتعهّد الفريقان تَعهُّد شرَف، بألّا يَعتديَ أحدهما على الآخر، وبأن يتعاونا ويتعاملا بمحبّة خالصة. (اِنتهى).

وعَرضتْ هٰذا النصّ على الفريقين، فوافَقَ الجميع عليه، ووقَّعوه والفرَحُ بادٍ على أوجههم جميعًا.

ودعا العملاق ضيوفه للقيام بنزهة في رُبوعه، فلَبَّتِ النجماتُ الدعائمُ الدعوةَ، ومررنَ بالهضاب والقِمم، فأُعجبن بمناظر الأودية والمنحَدَرات المُتسربِلة بالأرْز والبان والصنوبر والسنديان والدِّلب

والصَّفصاف، والمُنمَّقة بالوزّال والقندول وجميع أنواع الأزاهر. وشاهدْنَ الينابيع المُتعدِّدة والمُتفجِّرة في المناطق المختلفة، من عالِيَة ومُتوسِّطة ومُنخفِضة.

وبعد عَودتهنّ، سألهنّ: كيف وَجدتنّ رُبوعي؟

فقالت «مارانا»: إنّها لَوْحات جميلة، ساحرة، وهي خليقة بأن تكون مُتنزّه الآلهة، ولذٰلك، فأنا أَمسحكَ بِزَيت الحكمة، أيّها الجبل الجميل المَنيع، وستغرس كلّ دعامة منّا، بُزور ما ترمز إليه، في ترابكَ، وبين صخورك، حتّى تنتشر، في جَوِّكَ، نفحات منّا مُقدَّسة، تُلهب صدور وعقول أبنائكَ، وتُذكِّركَ، دائمًا، بنا.

فقال: هٰذا يَسرُّني ويُسعِدني جدًّا، ولٰكن، لي عندكنّ طَلَبٌ غالٍ جدًّا، جدًّا.

فقالت: وما هو؟

قال: يد أختكنّ «يو».

قالت: هٰذا يَسُرُّنا كثيرًا، ولٰكنّه أَمْر يعود الفَصْل

فيه إليها هي، وإلى أُمّنا الشمس.

فسُمع صوت من العَلاء، يقول: هٰذا هو آبني الحبيب، فطلَبُه مقبول، وحاجته مَقْضِيَّة. بورِكْت، يا آبني، أيّها العملاق، وبورِكتْ لكَ «يو» عروسًا تستحقّها وتستحقّكَ.

فبانَتِ البهجة على وجه «يو»، وشبكتْ يدها بيد العريس، وتعانقا. فرقصت قلوب النجمات فرحًا بهما، وصفّقن للمشهد العاطفيّ المثير، وبدا، جَلِيًّا لهنّ، أنّ أُمّهنّ الشمس تثق بـرجـولـة ونُبْـل هٰـذا العملاق، ثقة كبيرة. فطلبن إلى «سلمبا» الصغيرة أن تغنّيَ، آحتفاءً بالحَدَث التاريخيّ العظيم، فلبَّتِ الطلب وأنشدت:

لا تَعِدْ إنْ كُنْتَ لا تَنْوي الوَفا
إنَّمـا الوَعْـدُ آرْتِبـاطٌ وَأَمَـلْ
لا تُعَلِّـلْ بِنَـوال المُـرْتَجَـى
إذْ تَـراهُ يَنْتَهـي إلـى فَشَـلْ

عِـدْ وَعَلِّـلْ مُطْمَئِـنَّ البـال إنْ
كُنْتَ، لِلْوَعْـدِ، وَفِيًّـا وَبَطَـلْ

وراح صوتها الرخيم يَطوي ثنايا الأثير، إلى أن بلغ مَسامع سكّان الفضاء الأعلى، فأدرك هٰؤلاء أنّ وَفْدهم أصاب نجاحًا في مُفاوَضة العملاق، فأخذوا يستعدّون لاستقباله، بما يستحقّه من التقدير.

بعد أن آنتهت «سلمبا» من الغناء، هَنَّأت النجماتُ العروسَين بخطبتهما، ثمّ قالت «مارانا» لشقيقاتها، بكلّ هدوء: لا شكّ في أنّ نهاية آجتماعنا هٰذا، مع صهرنا وجارنا، سيكون نقطة آبتداء تَحوّل كبير في مَسار أمور كثيرة في العالَم، فيُحدِث ثورة بيضاء، على كلّ ما يُعيق خُطى الحضارة عن التقدّم. لأنّ بزور ما نرمز اليه، ستُثمر في حدائق صهرنا، وهٰذا يُحتِّم علينا أن نتدارس، مُجتمِعاتٍ، جميع التحوّلات، لتكون النتائج ثمارًا يانعة، كما يتوقّع كلّ مُخلِص كريم. ولذلك، فَلْنَعُدْ إلى فضائنا، لنعقد آجتماعًا مع أختنا الكبرى وسائر الأخوات،

ونتباحث في كلّ الأمور التي لا بدّ من الاهتمام بها وتنفيذها.

وقبل أن يُوَدِّعن العروسين، قالت «مارانا» لـ«يو»: إذا ما آحتجتما إلى مساعدتنا، فإيّاكِ أن تتأخّري في إعلامنا بذٰلك، فنحن لا نزال على العهد...

فشكرتْها «يو»، وقالت لها: ونحن، أيضًا، أنا وخطيبي، باقِيانِ على العهد، يا أختي، كما أنّني لا أزال «عين الفضاء»، كما تعلمين، فليطمئنَّ بالُكنّ.

فلمَ يَسَعْ «سلمبا» الصغيرة إلّا أن قفزتْ إلى عنق «يو» وعانقَتْها، ثمّ تَحوَّلت إلى العملاق، فعانقتْه وقبّلتْه فَرِحَةً، فَطَبَعَ هٰذا، على جبينها، قبلة لا يزال يَشعّ بها حتّى اليوم.

ثمّ ودَّعت النجماتُ الركائزُ العروسينِ، وآنطلقن، الواحدة إثر الأخرى، مُحوِّمات صُعُدًا نحو فضائهنّ. وما إنْ وصلن إلى مراكزهنّ، حتّى توافدت النجمات للسلام عليهنّ، وعلى رأسهنّ أختهنّ الكبرى.

ولمّا سألن عن «يو»، قالت لهنّ «مارانا»: بعد أن وقّعنا آتّفاق الوُدّ، طلب حليفنا العملاق، بكلّ محبّة وبراءة وشجاعة، يد أختنا «يو»، وكانت قد أَسَرَّتْ إليّ أكثر من مرّة، بأنّها تستلطفه وتُبادِله نظرات الحبّ. وبعد مُوافَقَة ومُبارَكة أُمّنا الشمس، خُطبتْ عليه، ورأينا أن من الحكمة أن تُعايشه بعض الوقت، فتتعرّف به أكثر فأكثر، ولا خوف عليها، فليطمئنّ بالكنّ.

فظهر السرور على وجوه جميع الحاضرات، وهتفْنَ للعروسين.

ولم يَسَعِ «الظريفة» إلّا أن تنهّدتْ وقالت: صَلِّيْنَ معي، يا أخواتي العزيزات، إلى الله، عَلَّهُ يرسل إليّ عملاقًا آخَرَ!

فضحكت النجمات طويلًا، لهٰذه المُلْحَةِ، ثمّ طَلَبنَ تعيين يوم لإقامة مهرجان يُعبِّرنَ فيه عن مدى فرحهنّ بهٰذا الحَدَث.

فقالت «الكبرى»: إنّني أدعوكنّ، جميعًا، إلى

آجتماع عامّ، نعقده غدًا، لنناقش نتائج رحلة وَفْدنا إلى كوكب الأرض، ونُبديَ آراءنا في نصّ المُعاهَدة التي ستجمعنا بالعملاق.

في اليوم التالي، عقدت النجمات آجتماعًا عامًّا. وبعد قراءة نصّ الاتّفاق، ومُناقَشة ما جاء فيها، تَقرَّر ما يلي:

أوّلًا: المُوافَقة على نصّ آتّفاق الوُدّ مع العملاق.

ثانيًا: إقامة مهرجان يُعبِّر عن فرح الفضاء الأعلى، مِن أقصاه إلى أقصاه، آحتفاءً بخطبة «عين الفضاء» يو على جارهنّ.

ثالثًا: الطلب إلى النجمات الدعائم الثماني، العودة إلى كوكب الأرض، لِسَبْرِ غوره في كلّ ما يتعلّق برموزهنّ، وتقديم تقرير عن كلّ ما يَرَيْنَهُ في هٰذا المجال، بُغية تطوير شؤون الحياة فيه، نحو الأفضل.

في الغد، آنطلقت النجمات الدعائم، قاصداتٍ كوكبَ الأرض، وهٰذه المرّة، دون «يو» و«سلمبا»

الصغيرة. ولكنّ «الظريفة» آستطاعت أن تحصل على إذْن بمُرافَقَتهنّ.

وما بلغن جوّ الأرض، حتّى تفرّقن في جنباتها، وراحت كلّ واحدة منهنّ، تبحث عن كلّ ما له علاقة بما ترمز إليه.

بعد سبعة أيّام، عُدْنَ جميعهنّ، إلى الفضاء الأعلى، وطلبن عقد آجتماع عامٍّ، ليُقدِّمن فيه تقاريرهنّ، حسب الأصول.

وفي الغد، آلْتَأَمَ شَمْل النجمات، وتَوالتِ التقارير.

التقرير الأوّل، قَدَّمتْه «عادا» رمز الطهارة، فجاء فيه:

لمّا كانت الطهارة تقوم بعفّة النَّفْس، وعفّة اللِّسان وعفّة التصرُّف مهما كان، فقد سَبرتُ أغوار الغرائز والضمائر في قارّات الأرض جميعها، باحثة عن ألْوِيتي، فرأيتُها مُشرَّعة في بعضها، وهٰذا ما سرّني، ومَطوِيّة في بعضها الآخر، وهٰذا ما حزّ في نفسي وآلمني و...

ولمّا قالت «عادا» هذا، بانت الكآبة على وجه «سلمبا» الصغيرة، فقالت لها، وكأنّها تريد التخفيف عنها: لا تكتئبي، يا أختاه، فلعلّ طبيعة الأرض هي التي قضت بأن يكون بعضهم على غير ما ترغبينَ.

فقالت نجمة أخرى: أوضِحي، يا «عادا»، وأعلِمينا بما سَرَّكِ، وبما أحزنكِ.

قالت: شريعتان تتجاذبان سكّان الأرض: شريعة الحنان والتعاون، وهي وليدة العدل وعفّة التصرُّف، وشريعة القسوة والتآكل، وهي وليدة الظلم ورداءة التصرُّف.

فقالت إحداهنّ: وكيف ذٰلك، يا «عادا»؟ بل، ما هي شريعة التآكل، هٰذه؟

قالت: إنّها الشريعة المُتَّبَعة في الغابات، إنّها الشريعة التي تَغتصب الحرّيّة، وتَحكُم على الضعيف بالخسارة، وأحيانًا بالزوال، بحجّة أنّ الحقّ للأقوى. الأسد يفترس الغزال، والذئب يفترس النعجة،

والنبتة الكبيرة تغتصب غذاء الصغيرة؛ حتّى الإنسان، في أوج حضارته، يُطبّق هٰذه الشريعة، ٱستجابة لأنانيّته. هٰذا هو التآكُل والتنازُع في سبيل البقاء.

فقالت الأولى: ألا أَثر، إذًا، في الغابات، لشريعة الحنان؟

قالت: رأيتُ اللبؤة تُرضِع أشبالها، بكلّ ما وهَبتها الطبيعة مِن قُدرة على العطاء، وكذٰلك النَّمِرَة والذئبة مع صغارهما، وكذٰلك الشجرة مع ما تَفرّع منها من أفنان وثمار.

فقالت نجمة أخرى: والبَشَر، يا «عادا»، حدّثينا عمّا رأيته في البَشَر.

قالت: رأيتُ نَفْسي، عند بعضهم، فَيْضًا من سلامة الطَّوِيَّة وعِفّة اللسان وطهارة القلب، وهٰذا، لَعمري، ما أفرحني، لأنّه مِن عَناويني. ثمّ آلمني ضجيج المَصالِح، طاغيًا على ضمائر البعض الآخر، وقد أتَوا ما يَشينُ، مُنغمِسينَ في حَمْأة الأنانيّة الغاشمة، فٱنصرفتْ عقولهم وقلوبهم عن المحبّة

والرحمة والعَدْل، هٰذا المُثلَّث الذي هو عنوان طهارة الخُلُق.

فسألتْ أخرى: وكيف ذٰلك، يا «عادا»؟

فقالت «سلمبا» الصغيرة المِغْناج، وكأنّها تريد أن تَظهر بمَظْهَر العارف: لا شكّ في أنّها طبيعة الأرض التي تَشدّ كلّ أَرضيّ إليها، بما فيها من مُغْرِيات تُحبِّب بالبقاء، أليس كذٰلك، يا «عادا»؟

فقالت «عادا»: طبيعة الأرض، يا سلمبا، غير مُلطَّخة بما يَشينُ طهارةَ ونقاءَ الضمير. الأرضُ، يا صغيرتي، لا تكذب ولا تخدع ولا تظلم، وليست كبعض البشر الذين يُخادِع بعضهم بعضًا، مُتمادينَ في الاستهتار بإنسانيّتهم، غير عابئينَ بما يَنتج من آستهتارهم هٰذا، مِن ظُلْم وشرور.

فعادت «سلمبا» إلى الاستيضاح: أفليستْ، إذًا، طبيعة البَشَر، كطبيعة الأرض التي يعيشون عليها، يا أختاه؟

فقالت «عادا»: الأرض، بطبيعتها، طاهرة،

كريمة، صادقة، يا سلمبا. ما أَوْدَعَها، يومًا، أحدٌ غِرسَ تِينٍ، فأنبتته له حَنْظَلًا، وما بَذَرَ فيها حَبّة عدس، فأنبتتها له شعيرًا. يُوْدِعها الزارع حبّة حنطة، فتعطيه الأضعاف منها، ويُوْدِعها الكرّام بزرة عِنَب، فتملأ سِلاله بالعناقيد اللذيذة الطعم، وتُغدِق على خوابيه الدبس والخمر والخَلّ والزبيب. البشر، وحدهم، يتكاذبون ولا يتورّعون عن نُصرة الباطل على الحق، في سبيل الوصول إلى غاية يَسعَونَ وراءها، مُستحِلّينَ التطاوُل على حقوق الضعفاء، زارعينَ الشكّ بعَدْل الحياة في نفوس بعض المؤمنين به، وهٰذا، لَعمري، ممّا يلفّ النشاط والتَّوق إلى التقدم، بضباب اليأس، ويُجرِّح العَدْل بأشواكه القاسية، وبهٰذا المعنى، قيل: «يكاد المؤمن يشكّ بعَدْل الحياة، عندما يرى حيلة الثعلب مُتغلِّبة على عَدْل الأسد».

وتوقّفتْ «عادا»، قليلًا، عن الكلام، ثمّ قالت، مُخاطِبة النجمات: أَوتظُنَّنَّ، يا أخواتي، أنّ طبيعة كيان الناس هي غير طبيعة كيان الأرض والسماء بما

فيهما وما عليهما وما بينهما من جَماد وكلّ ذي حياة؟ ما من كوكب سَلَبَ كوكبًا آخر حَقَّه في مُواكَبة الشمس، وتَلَقّي الضوء وإرساله في طبقات الفضاء، وما من جَبَل، على الأرض، سَلَبَ حَقَّ جبل آخر في آكتناز الخَيْرات وآستِنباتها، وفي وُقوفه سدًّا منيعًا في وجه الرياح العاصفة، وما من شاطئ سَلَبَ شاطئًا آخر حَقَّه في الاستمتاع بمُداعَبة الأمواج الهادئة، وفي التصدّي لِتَهَجُّم العاتي منها، وما مِن سَهْل أو وادٍ سَلَبَ مَثيله حَقَّه في آستنبات زَرْع وإشباع ضَرْع، وفي كَونه مهدًا تتهادى على صدره ساقية مِغْناج تترنّم، أو يتغربل في أخاديده نهر يُزمجر مُتنقِّلًا بين صخوره وجذوع أشجاره حينًا، وحينًا، مُرسِلًا هديرًا مُتواصِلًا من شلّالاته.

طبيعة كيان الكوكب والجبل والشاطئ والسهل والوادي، هي هٰكذا، لا تَحيد عن خَطّها في كينونتها.

الإنسان وحده، يا أخواتي، يتعامى، أحيانًا، عن

قُدسيّة كيانه ويَحيد عن خطّها، مدفوعًا بأنانيّة مُتطرِّفة، عمياء، لا ترحم ولا تَستكِنّ، وأين طهارة القلب والضمير، في كلّ هٰذا؟

اللبؤة لا تكذب في حُنُوِّها على أشبالها، حتّى الذئبة لا تكذب في عَطْفها على صغارها، والعصفورة الضعيفة لا تكذب في استماتتها في توفير القوت والحماية لفراخها؛ أفما تَرَيْنَ، يا أخواتي، كيف أنّها تملأ الجوّ زعقًا، وهي تهاجم المُعتدي على فراخها، بكلّ ما أوتيتْ من قوّة، ناسيةً ضعفها وآفتقارها إلى سلاح أقوى وأمضى من منقارها؟

أفليست الطبيعة هي التي وَسَمَتِ اللبؤة والذئبة والعصفورة بطابع الحُنُوّ والعطف والحماية، فكانت حريصة على عدم تشويهها بما يُلطِّخ نصاعتها؟

أمّا الإنسان الذي أعطته الطبيعة كلّ ما في صدرها من كنوز، بالمجّان، وبدون مِنّة؛ ابتسمتْ له بأقاحي الحقول، وأنعشتْهُ بنسيم الصباح؛ فَرَّجَتْ عنه وِحْدَتَه ومَلّلَه بألحان الربيع وعطاء الصيف،

وهَمْس الخريف، وترانيم الشتاء. أَغْنَتْه بالعقل والذكاء، وأَمَرَّتْ يَدَها الساحرة على عينيه فأَرَتْه جمال الزهور ونقاء الثلوج وعظَمة آنتشار النجوم؛ ولامستْ بَصيرته، فأَرَتْه بَساطة الروح وطهارتها وآطمئنانها في كَنَف هاتين المَزِيّتين؛ فتحتْ أُذنيه فأسمعتْه هدير الأمواج وهزيم الرعد وأنين العاصفة وأناشيد الشلّال وهَمْس السَّواقي؛ أَصعدَتْه القمّة فأَشعرَتْه بعظَمة تكوينها، وواجهَتْه بصُدور جبالها المُرصَّعة بالأرْز والسنديان والصنوبر، والمُعطَّرة بالبان والوزّال والقندول، فسحَرَتْه بِصُنع يديها؛ هبطتْ به الواديَ، فأَوْدَعَتْه أَسِرَّة الهدوء والاستقرار، ومالت به إلى الشواطئ، فأَرَتْه جَبروت البحار ومُجاوَرتها الآفاق الزرق، ونفثت عصارة صدرها وقدَّمتْها له في حبّات العنب والتين والتفّاح وسائر ثمارها وخضارها.

كلّ هذا، بالمجّان. فلماذا يتنكّر لتعاليمها، فلا يرى، من خلالها، سوى نفسه، ولا يسمع سوى نداء نفسه؟

إنّني مُتيقِّنة بأنّه، إذا ما تعفَّف عن كلّ ما تأْباه طهارة الطَّوِيَّة، فلسوف يجعل من الأرض، جنّة، تتمنّى العيش فيها ملائكة السماء.

فآرتفع صوت إحدى النجمات يسأل: ولماذا يتناسى الإنسان هٰذه الدروس الثمينة؟

فقالت «عادا»: إنّها عقدة الأنانيّة التي لا يريد بعضهم أن يَحُلّوها، بل هم يتركونها، طَوْعًا، مُضيِّقة على عِفّة التصرُّف.

فقالت أخرى: وهل يستطيع الإنسان حَلَّ عقدة الأنانيّة؟

قالت: لقد أراد الإنسان، فمَخَرَ البحار، وذَلَّل أَنْواءها. وأراد، فراد الأجواء وتَجوَّل في رِحابها؛ وأراد، فَوَطِئ بِرِجْله، سطح أخينا القمر ونَقَلَ شيئًا من ترابه وحجارته إلى كوكب الأرض. وأراد، فتنقّل بيننا، نحن كواكب الفضاء، وها هو مُزْمِعٌ أن يطأ سَطْحَيْ أخَوَيْنا المِرّيخ والمُشْتري، وسَطْح أختنا الزُّهَرَة. ولٰكنّه لم يُرِدْ أن يتخلّى عن قَيْد شعرة من

أنانيّته، فإذا به، دَوْمًا، مُتْخَم لا يَشبع، وظالِم لا يَرحم.

هٰذا ما رأيتهُ، يا أَخواتي، في أثناء تَجْوالي في كوكب الأرض، فعسى أن نتمكّن من آستنبات طهارة الضمير، وعفّة التصرُّف، في قلوب جميع أهله. ولنتحرّك في هٰذا المضمار، فقد قيل: «كلّ ما تحتاج إليه قوى الشرّ لتنتصر، هو أن يَلبث أنصار الخَير مكتوفي الأيدي دون القيام بأيّ عمل».

بعد أن صفّق الجميع لـ «عادا»، قالت «الكبرى» لـ «بوشا»: وأنتِ، يا رمز الجَمال، هاتي ما عندكِ. فتقدّمتْ «بوشا»، وتَلَتْ تقريرها، فجاء فيه:

لقد دخلتُ غابات الأرض وأوديتها، وتجوّلتُ في مُدنها وقُراها، وحوّمتُ في أجوائها، فوق جبالها وسهولها وبحارها، فرأيتُ بعض ما أَثلج صدري، وبعض ما آلمَ قلبي...

فقاطعَتْها «الظريفة»، مازِحةً: لعلّ ما أثلج

صدركِ هو عريس جميل، وما آلمَ قلبكِ هو إعراض هٰذا الغبيّ عنكِ، يا بهجة القلوب.

فتعالى ضحك النجمات لهٰذه الدعابة.

ثمّ تابعتْ «بوشا» تلاوة تقريرها، فقالت: تجلّى لي الجمال في تَكامُل تكوين الأرض، وتناسُق ما عليها من أحجام وأنواع وألوان.

وممّا آستوقفني، حديثٌ جرى بين دَوْحتين مُتجاورتينِ، إحداهما تتضجّر شاكيةً سوءَ حظّ جَمالها، والأخرى حكيمة، تُهوّن عليها ما تعتقده شرًّا لها:

قالت الأولى: ما هٰذه الحياة الرتيبة التي نعيشها في هٰذه الغابة العذراء؟ ها قد مضى، على وجودنا، في مكاننا هٰذا، مئات السنين، ولم نَرَ، في أثنائها، سوى نَمِر يُطارِد فريسة، ولم نسمع سوى أسد يَزْأر وذئب يَعْوي؛ ولم نُعانِق سوى رياح تَرى في ثيابنا لُعَبًا تقذف بها إلى الفضاء، وفي أغصاننا سِياطًا تُؤدّب بها كلّ غَرْسة تأبى الإذعان لأوامرها؛ ولا

يُجاوِرنا سوى هٰذه العَوْسجة المُتربِّعة، سعيدةً، في ظلالنا؛ فتَحُولُ، بأشواكها وكثافتها، دون وُصول أيّ زائر إلينا. أُنظري كم أنا جميلة بِقَدّي وبحلّتي، وكم أنا عظيمة بشُموخي وصمودي في وجه العواصف، أفيجوز أن أبقى هٰكذا، معزولة عن المُعجَبينَ والمُحِبّينَ؟ لقد أصبحتُ أشعر وكأنّني أعيش في ظلام نفسيٍّ دائم. فبالله عليكِ، يا أختي، قولي لي ماذا عليّ أن أعمل لأستريح من هٰذه الحالة المؤسفة.

فقالت الثانية: وكانت أكبر سِنًّا وأَنضج رأيًا: الجَمال ينبلج من عيون لا تَرى إلّا الخير، والخير لا تعرفه إلّا قلوب تنبض بالمحبّة. فكوني خَيِّرة ومُحِبّة، وليُشرق جَمال مَحبّتكِ على النَّمِر وعلى الأسد والذئب، وعلى هٰذه العَوسجة المسكينة، وآشكُري الله على أنّكِ تعيشين في سَكينة لا يُداعبها سوى زقزقات هٰذه المخلوقات الصغيرة الحلوة التي تحتضنينها من وقت لآخر.

وما أَنْهَتْ هٰذه الدوحة كلامها، حتّى رأيتُ نَمِرًا يَجرّ غزالًا، ويَهمّ بآفتراسه في جوار الدوحتين اللّتين آرتعدتْ فَرائِصهما لهٰذا المنظر الشَّرِس، وتململتْ أغصانهما مُرسِلة أنينًا جافًّا يُقطّعه أَلَمُ التقزّز والخيبة. فَأَمَلْتُ نَظَري عن هٰذا المشهد، بعد أن كنتُ قد آستحسنْتُ حديث الدوحتين.

أمّا الأودية، فقد شاهدتُ، في بعضها، العصافير، وكأنّها تتنافس في مهرجان عيد، مُزقزِقة، مُغرِّدة بأصوات مُختلفة مُتداخِلة، وهي تتنقّل، برشاقة، بين الغدير وأشجار الدلب والصفصاف. ورأيتُ حَسّونين يحُطّان، بألوانهما الزاهية، على غصن مُنفرِد، غمَرتْه أشعّة الشمس؛ وسمعْتُ أحدهما يقول للآخر: سنبني عشّنا، يا حبيبتي، على هٰذا الغصن الطليق، وسيكون لنا فراخ تملأ الجوّ ألحانًا ترقص على إيقاعها مياه هٰذا الجدول، مُتجاوِبة مع أنغام شلّاله الصغير.

فقالت رفيقته، بِدَلالِ الزوجة المُخلِصة المِغْناج:

وستأتيني بِقَشٍّ ناعِمٍ أَفرشه في العُشّ، لأَضَعَ عليه بُيوضي، حتَّى إذا ما نَقَفَتْها فِراخُنا، فإنّها تطأ أرضًا مُخمليّة لا تؤذي قوائمها الهزيلة الناعمة، وسنسعى، نحن الاثنين، لنوفِّر الغذاء الطيِّب الكافي لثمار حُبِّنا و...

وما لَفظتْ هٰذه الكلمة الأخيرة، حتّى فاجأهما صيّاد بنار بندقيّته، فأَرْداهما معًا.

وعندما قالت «بوشا»، هٰذا، بانَ التأثُّر على وجهها، وسُمِعَتْ آهاتٌ صادِرةٌ من أعماق قلوب النجمات، آستنكارًا لِما أتاه هٰذا الصيّاد الغادِر.

ثمّ تابعتْ «بوشا» تلاوة تقريرها فقالت: في المُدن، رأيتُ نفسي في جَمال خَطَّطه إنسان سليم الخَيال، مُرهَف الحِسّ، فأقام الدُّور والحدائق، بأشكال جذّابة تُقِرُّ العَين وتُبهج القلب وتُريح النَّفْس. كما رأيتُ نَفْسي، أيضًا، في تَنهُّدات زهور تلك الحدائق العَطِرة، وفي يد بُسْتانيِّها الذي عرف كيف

يُخرِج خريطة تتعانَق، على صفحتها، ألوان الأزهار الزاهية والذوق الرفيع.

ومن جهة أخرى، رأيتُ، في بعض جوانب المُدن، ما يُجرِّح رهافة الحسّ، ويُشوِّه الأخلاق، ويقضي على زَهْو الشباب وطهارة الجَمال، وهٰذا ممّا آلمَ نَفْسي.

في القرى، رأيتُ أشعّة الشمس تتغلغل في تراب الحقول والبساتين، لِتَمُدَّه بما يُنمي ما أَوْدَعَه فيه القَرويّون، من بزور البَرَكة. وسَحَرَني جَمال عيون الأمّهات اللّواتي تطفح قُدودهنّ الرشيقة، صحّة وعافية، وهنّ يُهَدهِدْنَ أطفالهنّ بحنان لولاه لَآنقرضَتِ الحياة على الأرض. كما راقَتْني مياه غُدْرانها، وهي تُؤَرْجِح، في اللّيالي، البُدور الغافية على سطوحها بكلّ طمأنينة.

رأيتُ الفلّاح الأسمر يختال في حقوله، ناظرًا إلى ما صنعَتْهُ يداه المُباركتان، فيضحك له الأُقحوان، ويزفر له النَّرجِس، ويَحنو عليه الزنبق

والخُزامى، وتتمايل أمامه السنابل الذهبيّة.

رأيتُ راعيًا تَتسرَّبُ أنفاسه من ثقوب نايِهِ ألحانًا تُنسي الحُمْلانَ والنعاج عُواء الذئاب ونِداءات الجزّار، لتُقْبِلَ على اَلْتِهامِ الأعشاب النديّة، بكلّ شهوة ولذّة، وكلبه يَدور، بِجِدّ ورشاقة، حول القطيع، وكأنّه يقوم برقصة الارتياح والطمأنينة؛ والوَيْل للذئب، إن حاول الاعتداء على أحد أفراد الرعيّة.

ثمّ رأيتُ زعيمًا يَمرُّ وأَعوانه بذاك المكان، فتدوس حوافر خيولهم زَرْع الفلّاح، وتُجفِّل قطيع الراعي...

وأخيرًا، رأيتُ الجَمال في سفينة تمخر عُباب السكون، في بحار الأرض وسهولها وجبالها؛ رُبّانها الفِكْر، وشِراعها الخَير، ورُكّابها الإيمان والشرَف والإبداع. ثمّ رأيتُ مَن طَرَأَ عليها، فعَكَّرَ سُكونها، ومَزَّقَ شراعها، وجَرَّحَ ركّابها.

هٰذا بعض ما رأيتُه ممّا أفرحني، وممّا أحزنني، على كوكب الأرض. وليت جميع الناس يحافظون

على نقاء الضمير والإيمان والشرَف والإبداع. بهٰذا، يَصِلونَ إلى أعلى درجات الجَمال، حَقَّقَ الله الآمال.

ثمّ تقدَّمتْ «ديدا» رمز الطموح، وتَلَتْ تقريرها، فجاء فيه:

تَصفَّحْتُ الطبائع والمُيول، على الأرض، فوجدْتُ أنّها تُقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل، وَسَمَتْه إرادة حازمة، تحمل لواء الألوهة، وتتجلّى فيه الرجولة بأجلى وأسمى مَظاهِرها.

القسم الثاني، وجدْتُه هَشًّا، فاترًا، يعتمد على عَون القدَر.

أمّا الثالث، فمشلول، أَقْعَدَه الجُبْنُ والخَوف. وهٰذان الأخيران، أي الثاني والثالث، يفتقران، بتفاوُت، إلى الحَزْم والثقة بالنّفْس.

فاَرتفع صوت إحدى الحاضرات يقول: ولماذا لا يَتبنّى أصحاب القسم الأوّل، أصحاب القسمين

الآخرينِ ، فيُعْتِقوهم من عبوديّة الجُبْن والخَوف؟

فقالت « ديدا »: إنّ أصحاب القسم الأوّل هم القِلّة، يا أختي، ومع ذلك، فمنهم مَن آسْتَهْدى وأصاب في آتّخاذ قرار، ومنهم مَن كان طموحه تَهوّرًا، فضاع وضَيّع، ومنهم مَن لم يُمهّد لِما هو مُعتزِم أن يقوم به، والتمهيد يستدرج النجاح في كلّ عمل، وهو أمر ضروريّ، منطقيّ، يفرضه الواقع السليم؛ فالفجر يُمهّد لشروق الشمس، والأزهار والبراعم تُمهّد لبروز الثمار، والفصول الأربعة يُمهّد واحدها للآخَر. والقوّة الجافّة، وحدها، لا تُوصِل إلى الهدف المَرْجُوّ، إذا لم تُمهّد طريقها، الحُنْكَةُ والبراعة. وإنّ جموح القوّة، عشوائيًّا، يُحطّم الهدف نفسه.

أمّا في ما يتعلّق بالتبنّي، فأُحِبّ أن تَعلمي، يا أختاه، أنّ الطبيعة، وحدها، هي التي تَتبنّى، دون آستشارة أحد.

فسألتْ أخرى: أليس باب الطموح مفتوحًا أمام الجميع، يا ديدا؟

قالت: جميع آفاق البطولات مفتوحة أمام إنسان الأرض، ولكنّ ضباب التردُّد يُغلّف، أحيانًا، آفاق إرادته، فيتخلخل عَرْشها، ويَجِدُ مستشارها العقل نفسه مغلوبًا على أمره، فتضيع فُرص النجاح.

فقالت « الكبرى »: ومَن هم أصحاب الأقسام الثلاثة، يا ديدا؟

أجابت ديدا: رأيتُ أنّ أصحاب القسم الأوّل هم: فلّاح نشيط صَبور، وعالِم كريم خلّاق، وشاعِر مُبدِع مُجيد، وقائد ذكيّ مِقْدام، وتاجر لبيب أمين، وكلّ مَن يَنزع إلى الأفضل دون يأس.

أمّا أصحاب القسم الثاني، فهم الذين يَنقصهم ثَبات الرأي والجرأة؛ يرسمون التصاميم، ولا يُقْدِمون على تنفيذها، لأنّ الخوف من الفشل يزرع التشاؤم في عقولهم، وينزع منهم ثقتهم بنفوسهم، ولذلك،

ينتظرون أن يأخذ القدَر بأيديهم، لِيَرَوا تحقيق ما صمّموه ورغبوا فيه.

وأخيرًا، رأيتُ أنّ أصحاب القسم الثالث هم الذين يَنسَونَ أو يَتناسَونَ أنّ وجوههم تتّجه إلى الأمام. إنّهم فئة الكَسالى الذين آستبَدّ بهم التشاؤم، فباتوا آتّكاليّينَ، لا يأتون عملًا إلّا مُنْقادينَ.

ثمّ ختمت « ديدا » تقريرها بقولها: أخيرًا، لَكَمْ أرجو أن تستقرّ نفحة منّي مكان الطمع في رؤوس بعض الأغنياء، ومكان الاستسلام في نفوس بعض الفقراء، ومكان الصَّغارة في عقول المُتَزَلِّفينَ المُشَعْوِذينَ، ومكان التردُّد في تصرُّفات المُتحيِّرين. إذًا، لغَدا كوكب الأرض هو الأقرب إلى جنّة الله.

ولمّا أنهتْ « ديدا » تلاوة تقريرها، دَعَت « الكبرى » أختها « إيلاتا »، قائلة لها: وأنتِ، يا « إيلاتا »، يا رمز المروءة، هاتي ما عندكِ.

فتقدّمتْ « إيلاتا » ونشرَتْ تقريرها، وراحت تقرأ:

لقد تجوّلْتُ في جميع أنحاء الأرض، فوجدْتُ نفسي عند قِلّة ضئيلة من سُكّانها. فهناك مَن رَكِبَ أمواجي، وأجاد في مُواكَبَة تيّاري، فتَعِبَ وبَذَلَ وضَحّى، وسُرَّ بثمار مروءته، وهناك من كبّلَتْهُ أنانيّته بسلاسلها القويّة، فلم يَخرج عن خطّ مصلحته الذاتيّة.

رأيْتُ المروءة في مَن جعلوا سَواعِدهم، بملء آختيارهم، جسرًا آمِنًا يَعبر عليه كلّ ذي حاجة، من ضفّة اليأس المُظلِمة، إلى ضفّة الأمل المُشرِقة.

أصحاب المروءة، آنغرست في نفوسهم وعقولهم فضيلة مُساعَدة بعضهم بعضًا، لأنّهم عايشوا الطبيعة، فآنعكس فيهم كَرَمها وتضحيتها وبراءتها.

فقالت إحداهنّ: وكيف يُعايِش البشر الطبيعة؟

قالت: يَشُقّون أرضها بسككهم، فتتنفّس وتتنشّق عبير سَواعِدهم وتمتزج أنفاسهم بأنفاسها، فتكتنز لهم الخيرات.

يُداعِبون تُرابها بِمعاولِهم فيتململ لاحتواء بزورهم وشتولهم.

يُؤاخون جبالها ويقدّسون قِممها، فتخلع عليهم نقاءها وشموخها.

يُهدهِدون أوديتها، فتنام على ترجيع صلواتهم.
يَرْعَوْنَ ماشيتها بعنايتهم، فتُجزِل لهم القرابين.

السهول تُنبِت لهم خيراتها، والجبال تَدُرّ لهم ما في صدورها، والأودية تُرنّم لهم أجمل وأبهج الألحان بسواقيها وشلّالاتها وطيورها، وبترجيع أهازيجهم.

هٰكذا يتناغم أصحاب المروءة والطبيعة، تلبيةً لندائي وترجمةً لرسالتي.

أمّا الذين لا يُعايِشون إلّا المَصالِح الذاتيّة، ولا يتعاطفون إلّا مع الأموال، خصوصًا، في هٰذا العصر الذي طَغَتْ فيه المادّة على ما سواها، فإنّني لا أحسدهم على آستهتارهم بأخيهم الإنسان؛ وقليلًا جدًّا، ما رأيت نفسي، عند بعض أمثال هٰؤلاء، على ظهر سلحفاة يشدّ بها المُتظاهِرون منهم بالغيرة، إلى

الأمام، ويُعرقِل سَيْرها البطيء مَن لا يَدينون إلّا بالسيطرة والجاه والرفاهية.

صاحب المروءة يهبّ إلى النجدة، بحماس وإخلاص، لأنّه يرى أنّ من واجبه أن يَحول دون آنهيار رجاء خَيِّر، ودون آنطفاء سراج أمل يُنير زاوية من ليالي البؤس الحالكة.

صاحب المروءة يهبّ للنجدة دون آبتزاز ومُداهَنة، ولا يفسح للمُتضرِّرينَ منها أن يحوزوا آنتصارًا على ضعيف مظلوم.

صاحب المروءة لا يَألو جهدًا في تشجيع كلّ صاحب رسالة شريفة.

صاحب المروءة يُسرع إلى العمل على لَجْم أسباب الحروب المُدمِّرة التي تُشعل الأنانيّةُ والأطماعُ نيرانَها، فتقضي على الأخضر واليابس، وتضع حدًّا لحياة مَن ليس له الحقّ في وَضْع حدّ لها غير خالقها؛ بل إنّه يسعى إلى تحويل بارودها وحديدها إلى ندى إنعاش ورذاذ رحمة، وقد قيل: «أَنْ تعيش

وتَدَع غيرَك يعيش، أمرٌ لا يكفي. بل عِشْ وساعِدْ غيرَكَ على أنْ يعيش، وهٰذا ليس كثيرًا عليكَ».

وأنْهَتْ «ايلاتا» كلامها قائلة: وما كان أجمل وأهْنَأَ سكّان الأرض، لو أنّهم يعقدون الخناصر ويتعاونون كما تقضي المروءة؛ أفما قيل: «المروءة آسمٌ جامعٌ لكلّ المحاسِنِ؟»

العَروسُ «يو»

وَلْنَعُدْ إلى العروس «يو». فقد أمضت ثلاثة أيّام مع خطيبها، يتغازلان ويتنادمان، ممّا زادهما تعلّقًا وإعجابًا، الواحد بالآخر. ولم تنسَ أنّها «عين الفضاء»، وأنّ لها رسالة مُقدَّسة، يجب أن لا تُهْمِلها، وهي التجوال في الفضاء، حفظًا للأمن؛ فآستأذنَتْ خطيبها في اليوم الرابع، ليسمح لها بالعودة إلى ميدانها، على أن تتردّد إليه بين فترة وأخرى، ريثما يحين يوم الزفاف. ثمّ راحت تجوب الفضاء اللامتناهي، بكلّ يقظة، كعادتها.

ومَرَّتْ بأختها الكبرى للسلام عليها، فكان لقاء مُؤثِّر. وسألتها عن سائر الشقيقات الدعائم، فقالت لها «الكبرى» إنّها أرسلتهنّ إلى كوكب الأرض ليبحثْنَ

عن كلّ ما له علاقة بما يرمزنَ إليه، وتقديم تقرير عن ذٰلك. ثمّ قالت لـ « يو »: وعليكِ، أنتِ أيضًا، يا دعامة الذكاء أن تَحْذي حَذْوَهُنَّ، وتُقدّمي لنا تقريرًا عن كلّ ما تَرَيْنَ أنّ له علاقة بما ترمزين إليه، على كوكب خطيبكِ العملاق.

في هٰذه الأثناء، وقَبْلَ أن تنطلق « يو » لتقوم بجولة جديدة، وصلتْ « سلمبا » الصغيرة. وما رأت أختها « يو »، حتّى رَمَتْ بنفسها على صدرها، وراحت تُقَبّلها بكلّ حرارة؛ وأرادت أن تُحادِثها، ولكن « الكبرى » قالت لها: دعيها، يا سلمبا، ولا تؤخّريها عن الذهاب إلى جوّ الأرض، للقيام بواجبها. فقالت الصغيرة، بكلّ دلال: إذًا، دعيني أذهب معها، وسأعود، أيضًا، معها، دون إبطاء، وإلّا فإنّني سأجد نفسي حزينة جدًّا.

وقبل أن تتكلّم « الكبرى »، قالت لها « يو »: أرجو أن تحقّقي لها رغبتها، يا أختي، وأنا أتعهّد برعايتها وإعادتها معي، بعد أن أُنهي جولتي على كوكب الأرض.

اِبتسمتِ « الكبرى » لسلمبا، إشارة إلى المُوافَقة على طلبها، فسُرَّت الصغيرة وشكرَتْها وعانَقَتْها. ثمّ آنطلقتْ « يو »، تتبعها الصغيرة، قاصِدتَيْنِ جوّ الأرض.

اِستغرق تَجْوالهما أربعة أيّام، عادتا، بعدها، إلى الفضاء، إذ كان الاجتماع العامّ معقودًا، وفي اللحظة التي كانت « إيلاتا » قد أنهت فيها قراءة تقريرها.

ولمّا رأت النجمات أختهنّ العروس « يو »، صَفَّقْنَ وهَلَّلْنَ لها.

وبعد أن هدأ الجوّ، وساد السكون، قالت « الكبرى » لسائر النجمات: لا شكّ في أنّكنّ آشتقتُنَّ إلى أختكنّ « يو »، وأنّكنّ ترغبن في سماع أخبارها العاطفيّة والمَصيريّة. ولٰكنّني أرجو أن يتأجّل ذٰلك إلى مُناسَبة أُخرى، لأنّ هٰذا الوقت مُخصَّص لسماع تقارير أخواتكن الدعائم. ثمّ آلتفتت إلى « يو »، وقالت لها: لقد وصلتِ في الوقت المُناسِب، يا أختاه، وأرجو المعذرة، لأنّنا لن نَدَعَ لكِ فرصة

للاستراحة، بل نرغب في أن تُتحِفينا بتقريركِ، فهاتي ما عندكِ، يا رمز الذكاء.

فقالت « يو »: لقد طُفْتُ في الأرض، فرأيتُ ما قَرَّتْ به عيناي، ولكنّني رأيتُ، أيضًا، ما آلَمَ نَفْسي وأَحْزنني.

فصاحت « الظريفة »: طبعًا، طبعًا، إنّها أرض الخطيب الحبيب، تُسَرّينَ لِما يحلو له، وتَحزنين لِما يُحزِنه...

فلم يتمالك الجميع عن الضحك، ما عدا « سلمبا » الصغيرة التي قالت بلهجة العاتب المُدافِع عن « يو »: لقد مررنا بأَرْض الخطيب كما مررنا بسائر أنحاء الأرض، ولم نتوقَّف عنده حتّى للسلام عليه، فنعرف منه ما يُفرِحه وما يُحزِنه، لأنّنا كنّا نقوم بإنجاز أمر، لا بنزهة أو بزيارة. فآبتسمتْ لها « يو »، وقالت « الكبرى »: إنّها مزحة، يا سلمبا، أطلقَتْها أختكِ « الظريفة »، فآطمئنّي. ثمّ قالت لـ « يو »: تابعي كلامكِ، وقولي لنا ما الذي أَقرَّ

عينيكِ، وما الذي آلَمَ نفسكِ.

فقالت « يو »: رأيت براعم الذكاء تَفتَّحتْ وتَتفتَّحُ عن ثمار، لا أَيْنَع ولا أشهى. كما رأيتُ، أيضًا، بَراعِمَ ذَهَبَ بها الإهمالُ والاستهتار، فضاعتْ وضاع جَناها.

رأيتُ نفسي أُحرِّك كفَّ فلّاح تضغط على « الصَّمْد » لِتَشقّ سكّته الأرض مَهْدًا لِحَبّات الخير والبركة. ورأيتُ نفسي أُحرِّك ذراعيه القويّتين القاسيتين السمراوين، وهما تحصدان، بدقّة ونشاط، ما زَرَع ليَملأ الأهراء بما يُشبع الجوعَ. كما رأيتُ نفسي أطبع على ثغره آبتسامة تَزرع البهجة والأمل في نفوس وقلوب زوجته وأطفاله وجيرانه.

رأيتُ نفسي في يَدَيْ مُزارع يَغرس شتل الخُضَر والشجر، لِتُعطِيَ ما يُغْني ويُزيِّن موائد الملوك والفقراء.

فصرخت « الظريفة »: لقد أثرتِ شهوتي، بكلامكِ هذا، يا « يو ».

فأجابتها: اِذهبي إلى خطيبي، فهو يَروي غلّتك ويُشبع نَهمكِ، وأهلًا وسهلًا بكِ.

فقالت «الظريفة»: أجل، سنقصده، يومًا ما، يا حلوة.

فضحكتِ النجمات لهٰذه المُداعَبة، ثمّ قالت «الكبرى»: تابعي كلامكِ، يا «يو».

قالت: رأيتُ شعلة منّي تُنير خلايا أدمغة عُلَماء سلكوا مَدارِج الآلهة، وسلّوا أسرار الطبيعة من قلبها، ومن ترابها وصخورها وغيومها وهوائها ونباتها وحيوانها، فجلّوا في تحليل كلّ مُقوّمات الحياة فيها، فأعادوا الأمل إلى يائس، والحياة إلى مائت.

رأيتُ نفسي أتألّق في خَيال رسّام، فأُواكِب ريشته، وأَشُعُّ في رُؤى نحّات فأتنقّل مع إزميله، لِيَخلق، كما الرسّام، عالَمًا من الجماد، يكاد ينبض بالحياة.

رأيتُ نفسي على أجنحة شاعِر قَرَعَ أبواب

السماوات، وتغلغلَ في أفكار الآلهة، فراح يَصوغ قلائد تُزيِّن جيد عَصْره، ويُطلِقها حلى تُداعِب نُحور عرائس الجنّة، وتحلم بِمِثْلها عشتروت فينيقيا وفينوس روما وأفروديت أثينا.

رأيتُ نفسي في خَفْقة قلب أُمّ، وفي جرأة قائد حكيم شجاع، يَذود عن حرّيّة وشرف وكرامة وطنه ومُواطِنيه، وهٰذا كلّه أفرح قلبي.

في غمرة الصمت السائد بين النجمات، وإصغائهنّ التامّ لما تقوله «يو»، عاد صوت «الظريفة» ليرتفع ويقول: لا فُضَّ فُوكِ، يا «يو»، يا رمز الذكاء الوَقّاد.

أمّا «يو»، فبَعْدَ تشجيع «الظريفة» لها، تابعتْ كلامها قائلة: رأيتُ بريقي يَشعُّ في قلم عالِم خَطَّطَ وسَيَّر مَرْكباتٍ تَحوم في عالَمنا نحن، واستقرّتْ شعلة منّي في ضمير حاكِمٍ استقصى، وعَدَلَ فَحَكَمَ؛ وفي زوايا دماغ صِناعيٍّ خَلَقَ وأَحسنَ وأبدعَ. وهٰذا، أيضًا، ممّا أثلجَ صدري وأقرَّ عيني.

وشوهِدَتْ « سلمبا »، وكأنّها تحاول أن تقول شيئًا، ولٰكنّها لا تريد قَطْع حديث « يو »، فقالت لها « الكبرى »: ما بكِ، يا سلمبا؟

فقالت « الصغيرة »، بكلّ ما لها مِن دالّة على شقيقاتها: ألم يَحِنِ الوقت، بعدُ، لأُخبِرَكنَّ عمّا رأيتُه أنا؟

فآرتفع صوت نجمة مِلْحاح: مهلًا، يا سلمبا، دعي « يو » تُحدِّثنا عمّا آلَمَ نَفْسها، بعدَ أن حدّثَتْنا عمّا أَثلجَ صدرها وأَقرّ عينيها، ثمّ تقولين لنا ما تريدين.

فظهر الحزن على وجه سلمبا الصبيح. فقالت « الكبرى »، وهي تنظر إليها نظرة حنان: فلتسترحْ « يو » قليلًا، ولنستمعْ إلى أختنا الصغرى. وقالت لسلمبا: أَتْحِفينا بما عندكِ، يا حبيبتنا، ولا تَنْسَيْ شيئًا.

فتعالت الأصوات: هيّا، يا سلمبا، هيّا حدّثينا عمّا لَفَتَ نظركِ في رحلتكِ مع « يو ».

فسُرَّتْ سلمبا، وآنفرجتْ أسارير وجهها، وقالت: بكلّ سرور، يا شقيقاتي، فآسمعْنَ: بينما كانت « يو » مُنهمِكة بريشة الرسّام وإزميل النحّات ومركز أبحاث الكيميائيّ ومُخيِّلة الشاعر وإبداع العالِم والصّناعيّ وحكمة وعَدْل الحاكِم، رحتُ أنا أبحث عن مركز لعِلْمِ الأَدْوار، عَلّني آخُذُ عنه لحنًا...

فعَلَتْ ضحكات النجمات، وآرتفع صوت يقول: وما عِلْمُ « الأَدْوار » هٰذا، يا سلمبا؟

فقالت بغضب: ولماذا تضحكن؟ ألا تعلمن أنّ عِلْم الأَدْوار هو عِلْم الموسيقى؟

فقالت « الكبرى »: حسنٌ، حسنٌ، يا سلمبا. وهل وَقَعْتِ على مركز لعِلْم الأَدوار؟

قالت: أجل، لقد أرشدَتْني إليه أنغام هادئة وأصوات كأنّها أصوات أجواق ملائكيّة تُؤدِّي أجمل ما عندها، تسبيحًا لله.

فقالت نجمة: ومَن كان أصحاب هٰذه الأنغام والأصوات؟

قالت: كانت «يو» قد تبعَتْني، حفاظًا عليَّ، وما كادت تَسمع ما سمعتُ، حتّى ظهرتِ الدهشة على وجهها، فقالت لي، هَلُمّي بنا إلى مَصْدر هٰذه الأنغام الحلوة. فآنطلقْنا معًا.

وتابعتْ سلمبا كلامها، فقالت لـ «يو»: أرجو أن تقولي أنتِ، للشقيقات ماذا رأينا وماذا سمعنا.

فقالت «يو»: حُبًّا وكَرامةً. صاحب النغَم، كان موسيقيًّا رهيف الحِسّ، سليم الذوق، حَملتْ ثَنايا إحساسه جُذْوة منّي لامستْ خَياله، وألهبتْ أنامله، فصاغ ألحانًا آنتشى بها الأثير، وتَمتمتْ بدفئها شِفاهُ الأمّهات، وخشع لها المُصَلّون: وأقبلَ عليها الراغبون في تعلّم لُغة الملائكة؛ ألحانًا رَوّضَتِ السِّباع الغَضْبى، فأَخْفَتْ نَواجِذها، وآنحنتْ أمامها؛ ألحانًا أطربَتِ الأفاعيَ، فحبستْ سُمومها ورَقَصتْ على تموُّجاتها؛ ألحانًا تطرّقَتْ إلى أوتار حَنْجَرة ذهبيّة فقرَعتْ أَجراسها، وزَغردتْ فأطربتْ، ولامستْ أوتارًا أخرى مُخمليّة، فسَكِرَتْ برحيقها الآذان، وآرتاحتْ

لنعومتها الأعصاب، وآنسابَتْ في نِياط القلوب فأنعشتْها. هٰذا ما لَفتتْ نظري إليه أختنا الصغرى الحلوة «سلمبا» التي أَطلب إليها أن تَضعَنا، الآن، في جوٍّ: موسيقيٍّ طَرَبِيٍّ.

فهتف الجميع لسلمبا، ودَعوْنَها إلى الغناء، فلَبَّتِ الدعوة، وأنشدتْ، بصوتها الناعم:

يا بُدور الأُنْسِ شعّي وآسْكُبي
بَلْسَمًا يَشْفي جُروحَ المُسْقَمِ
وآعْمَلي لِلْوَصْلِ، إن طالَ النَّوى
إنّما الوَصْلُ شِفاءُ المُغْرَمِ
إنَّ قَلْبًا غاصَ في قَلْبِ الهَوَى
لَهْوَ قَلْبٌ لِنَدَى الحُبِّ ظَمي

في هٰذه اللحظة، سُمعتْ آهة أرسلَتْها «الظريفة»، وقالَتْ، بصوت عالٍ: سلمبا، يا سلمبا، لَيْتَكِ تأتيني بقطرة واحدة من هٰذا الندى، علّها تُبرّد لهيب قلبي.

فقالت لها إحداهنّ، مُداعِبة: نَدى الحُبّ، تنعمين به، يا «ظريفتنا» المحبوبة، ولٰكنّ ما تحتاجين إليه،

هو بلسم اللقاء، فآسْعَيْ في طلبه.

فتعالت الضحكات، مِن هنا وهناك، ثمّ صمت الجميع، فقالت «الكبرى»: لقد أسمعَتْنا «يو» بعض ما أثلجَ صدرها، فهل لنا أن نعرف شيئًا عمّا أحزنها؟

فقالت «يو»: إنّ ما أحزنَ قلبي، يا أختاه، هو أنّني رأيتُ نفسي في أدمغة كثيرين من الناس، ولكنّ إرادة بعضهم ممَّن لا يُؤمِنون بالقِيَم الأخلاقيّة، سَيَّرتني في غير طريقي، فكنتُ سببًا لمآسٍ جمّة.

فقالت «الكبرى»: أليس لهؤلاء ضمير يَنْهاهم عن الشرّ، يا «يو»؟

قالت: لقد خدَّر الطمع ضمائرهم، وأسْكتَتْها الأنانيّة الخرقاء.

فقالت إحدى النجمات: وكيف ذلك، يا عين الفضاء؟

قالت: هذا تاجر ذكيّ، لا يكتفي بالربح

الحَلال، بل يبيع ضميره من الشيطان، فَيَستحلُّ الحرامَ، ويَتسبّب بإفقار وحرمان الكثيرين ممّا هُم بحاجة إليه، فيخلع على الإنسانيّة جلود الوحشيّة الصفيقة.

والأكثر إيلامًا، كان رؤيتي نفسي في رؤوس مُرَبّين شَدَّتْهم المادّة إليها، فآستَهتروا وتَقاعَسوا عن القيام بواجبهم، فضَيَّعوا على مَن هم تحت رعايتهم، فُرص النجاح والإنجاح، وتَسبّبوا بآنهيار أخلاق، وتخلخُل دعائم أوطان، وهذا ذَنبٌ لا يُغتفَر.

فلم يَسَعْ إحداهنّ إلّا أن قالت: إذا كان الذكيّ يقوم بما يعلم أنّه يدينه ويخجله، فبئس ذكاؤه وإنسانيّته.

فقالت «يو»: وما ذَنْب النور، يا أختاه، إن آكْتَوى جناح الفراشة بناره؟ وما ذَنْب قطرة الندى، إن حالَتْ يد الشرّ دون وصولها إلى الوردة، فَذَبُلتْ أوراقها؟ وما ذَنْب البَدْر، إن حَجَبَ ستار الضباب نوره عن أعيُن الناس فتعثّروا وضلّوا في ظلام الليل؟

النور والندى، يا أختاه، هما كالذكاء، إن حَجَبَهما ضباب الشرّ، فإنّه لا يُلْغيهما، بل هما يبقيان ذاك السلاح المُصْلَت في وجه الظلمة والجفاف.

أمّا الشرّير الذي يدفع الناس إلى أن يفقدوا ثقتهم به، فمهما حاول تبرير آنحرافه الطّوعيّ، فإنّه يبقى ذاك الفاسد المُفسِد، لأنّ الشّرّ الكامن في ثنايا بعض الضمائر، يبقى شرًّا، مهما حجبوه بِطِلاءٍ ومساحيق الغيرة المُصطنَعة؛ والذئب يبقى ذئبًا، ولو لم يفترس الحَمَل.

فقالت الأولى: وما العمل، إذًا، يا «يو»؟

قالت: اِستئصال الشرّ من النفوس ليس بالأمر الهيِّن، ولٰكنّه ليس بمستحيل، فإذا ما آستَنْبَتْنا بُزورنا في رِحاب الأرض، نكون قد حقّقْنا ما يقتلع الشرّ من جذوره، أو، أقلّه، نكون قد قضينا على مُعظمِه. ويجب أن لا ننسى أنّ هناك مُعادَلة، يجب أن تُحَلّ، لتَصطلِح كلّ الأمور بين البشر.

قالت: وما هي هٰذه المُعادَلة، وما هو حلّها؟

فقالت «يو»، مُبتسِمة: إنّها في جعبة أختنا «سميرام».

فَالتفتَ الجميع نحو «سميرام»، وقالت «يو»: أظنّ أنّ إحالة المُعادَلة على جعبة «سميرام»، هي خير حلّ لها. فهاتي ما عندكِ، يا «سميرام»، يا رمز المحبّة.

فرفعَتْ «سميرام» صوتها قائلة: أمّا أنا، فقد رأيتُ جميع الناس، على كوكب الأرض، يَنشدون المحبّة، ولٰكنّ بعضهم يرغبون في أن يُحبّهم الآخرون، دون أن يُلزموا أنفسهم بأن يُحِبّوا، هم، الآخرين؛ وهٰذا هو شَرْطهم في إبداء مَحبّتهم، ولَيْتهم يُدرِكون أنّ المحبّة لا تُساوِم ولا تُماري. لَيْتَهم يُدرِكون أنّ المحبّة لا تُقَيِّد ولا تُقيَّد، وهي، إن حَملتِ المحبوب على أن يُحِبّ مَن أحبَّه، فإنّ هٰذا لا يعني سوى السَّير في دَرْبها المفروش بالورود، والمُؤدّي إلى السعادة.

المحبّة لا تُؤمِن بالحواجز: إنّها كالروح، تخترق الجدران وجميع العوائق، وتُذلِّل كلّ العقبات، لتنشُر راية السعادة حيث تستقرّ.

المحبّة تنسى الإساءة.

إنّها ذاك المزيج من الحنان والتسامُح والتواضُع والغيرة المُقدَّسة.

لقد رأيتُ بعضهم يتفانون في محبّة إخوانهم وأوطانهم حتّى التضحية بنفوسهم، فقلتُ، هٰذه محبّة.

ورأيتُ أمًّا وأبًا وأختًا يتبادلون الإخلاص والحنان، فقلتُ، هٰؤلاء هم أبنائي، فمَنْ لي بالكثيرين منهم.

وفي المُقابل، رأيتُ أناسًا يُظهرون الكثير من العَطْف على السِّوى، ثمّ تبيَّن لي أنّهم، إنّما يفعلون ذٰلك، طَمَعًا بمكسب، فقلت: إنَّها مُداهَنة لا محبّة.

فقالت إحداهنّ: أليس في حُكمِك هٰذا، ظُلْم، يا «سميرام»؟

قالت: وكيف ذٰلك؟

قالت: أَوَتظنّين أنّ المرء لا يشعر بدفء المحبّة، ولو كانت زائفة؟ فلماذا الحُكْم بحرمانه هٰذا الدفء المُعزّي؟

فقالت «سميرام»: المحبّة المُدفِئة هي المحبّة الواقعيّة الفاعلة، ولا شيء سواها.

عندما تشعرين، في داخلكِ، بعطف نابع من حنان صادِق، حقيقيّ لا مُصطنَع، ومن رغبة في رؤيتكِ مَن تُحبّين، على ما ترغبينه له من سعادة، ناسية ذاتكِ إلى حين، وشاعرة بطمأنينة نفسيّة، عندئذٍ تكون المحبّة الحقيقيّة قد لامسَتْ حَبّة قلبكِ، وخلعتْ عليكِ مسحة الألوهة.

هٰذه هي المحبّة التي يجب أن تُمارَس في الكون، ليَسوده السلام والاطمئنان.

هٰذه هي المحبّة التي تقضي على مبدإ تَنازُع البقاء عَدُوّها اللدود، الذي يَحمل الإنسان، أحيانًا، على التنكُّر لإنسانيّته.

فقالت إحداهن: وهل يكون الإنسان مُتنكِّرًا لإنسانيّته، إذا سعى وراء مَصالِحه؟ ثمّ، أما قيل: «إنّ محبّة الإنسان تبدأ بنفسه»؟

فقالت سميرام: هٰذا صحيح، ولٰكنّ المحبّة تقضي بأن يُحِبّ الآخرينَ، أيضًا.

إنّنا، جميعًا، نعلم أنّ الإنسان مخلوق يمتاز، عن سواه من المخلوقات، في كَونه ذا عَقْل يضعه في مقام الآلهة.

إنّنا نعلم أنّ إلٰه السماء خلق الإنسان ليكون ظِلّه على الأرض.

إنّنا نفهم أنّ هٰذا الإنسان يعرف، جيّدًا، نواميس الطبيعة، ويُدرك تمام الإدراك، أنّ كونه ظِلّ الإلٰه يُحتّم عليه أن يُنشِد الحياة الاجتماعيّة التي ترتكز على الألفة والتعاون والمحبّة. وهل يستطيع أحد أن يجمع بين تنازُع البقاء والألفة والتعاون والمحبّة؟

فقالت أخرى: إذًا، هناك صراع مُستمِرٌّ بين تنازُع البقاء والمحبّة.

فقالت سميرام: كلٌّ من المحبّة وتنازُع البقاء، يسير في خطّ مُعاكِس للآخر، أو، هما على خطّينِ مُتوازِيينِ لا يلتقيانِ أبدًا. الجسد مادّيّ، يشدّ الإنسان إلى التعلّق بالمادّة، لأنّها تُوفِّر له ما يشتهيه تجاوبًا مع رغائبه المادّيّة، فتدفعه، أحيانًا، في سبيل ذٰلك، إلى مُمارسَة مبدإ تنازُع البقاء. والنفس غير الهَيولِيّة، تدعو الإنسان، بواسطة نِبْراسها العقل غير الهَيولِيّ، إلى اعتناق مبدإ المحبّة. ومن هنا، الصراع بين الاثنين. وعندما تنتصر المادّة على العقل، فعلى الإنسانيّة سلام.

لقد رأيتُ المآسِيَ تُمثَّل على مسرح الحياة، والذين يلعبون أدوار أبطالها، مُعظمهم من الأقوياء، أو من الذين يحسبون أنفسهم أقوياء.

الأسماك والذئاب، يأكل قويُّها ضعيفها، بدافعٍ من الغريزة الجاهلة المُتكالِبة؛ فلماذا يأكل أقوياء البشر ضُعفاءهم؟ أبِدافِعٍ من العقل الواعي، أم إنّها المادّيّة قد حاصَرتِ العقل، وأرغمتْه على

الانحجاب، فآنحدرتْ بالإنسان إلى أسفل دركات الغريزة.

هل يدرك الذئب أنّه يُخطئ في فَتْكه بذئب آخر؟ لا، إنّه لا يدرك ذٰلك.

أمّا الإنسان فهو يدرك، تمامًا، أنّه يُخطئ في فَتْكه بإنسان آخر بريء، وإلّا، فلماذا يخاف، ويُعذّبه ضميره بعد رجوعه إلى نفسه؟ أليس لأنّ العقل الذي يُميِّزه عن الحيوان، يبقى كامنًا، مُستيقظًا تحت ما يتراكم عليه من رماد المادّة والجشع؟

ثمّ تابعت «سميرام» كلامها قائلة: وممّا راقني، في رحلتي هٰذه، حوار دار بين نحلتين كانتا على زهرتين مُتجاوِرتين، تمتصّان رحيقهما، بكلّ نشاط. وفي فترة آستراحة، قالت إحداهما لأختها: أُنظري هٰذا الرجل الذي يحاول الاستيلاء على مخزوننا من العسل، لِيَجْنِيَ هو ثمار تَعَبنا، ألا نُهاجِمه ونُلقي عليه درسًا بعدم التعدّي على رِزْق الغير؟ إنّه يريد أن يَحصد ما لم يَزرع، وهٰذا آفتئات بنا وبأتعابنا.

فقالت الثانية: على رِسْلِكِ، يا أختاه، إنّ هٰذا الرجل زرع تَعَبَه ورعايته لنا ولهٰذا البستان الذي نتنقّل على أزهاره وأفنان أَشجاره؛ فمِن حَقّه أن ينال قسمًا من العسل الذي نجمعه بفضل تَعبِنا وتَعبِه هو أيضًا. ثمّ، أتنسينَ، أم تتناسينَ أنّ أمّنا أَوْصَتْنا بأن يَعمّ جَنانا جميع مَن هم بحاجة إليه، دون أن نتبرّم؟

وتابَعتِ الثانية كلامها قائلة: مِن حَقّكِ أن تُدافِعي عمّا هو مُلْكٌ لكِ، ولٰكنْ، ما الفضل في أن تَضنّي على سواكِ بما يُغنيه ولا يُفقركِ؟ ثمّ، ألم يُطلَق علينا آسم «النَّحْل» لأنّ الله «نَحَلَ»، أي أَعْطى الناس العسل الذي يخرج منّا؟ أَوَليسَ هٰذا عَمل مَحبّة أَبْداه الله نحو الإنسان؟

فقالت الأولى: هٰذا صحيح، ولٰكنّ الله والطبيعة لم يوصِيانا بأن نَحرم أنفسنا من الغذاء الذي نعتمد عليه في فصل الشتاء، إذ لا يعود بإمكاننا، التنقّل وجَنْيُ قوتنا وقوت صغارنا.

فقالت الثانية: قليلًا من التضحية، وزيادةً زهيدة

من النشاط، فتحصلينَ على ما يُشبِعكِ ويُرضي هٰذا البستانيّ النشيط.

فأطرقَتِ الأولى، وكأنّها تُفكِّر بشيء، ثمّ قالت: صَدَقْتِ، يا أختي، فلقد بدأتُ أُحبّ هٰذا الرجل الذي يُعطي فيُعطى، ويساعِد فيساعَد.

فعادت الثانية لتقول لها: وأيّ فَضْل لكِ في أن تعطي مَن يُعطيكِ، وتساعدي من يساعِدكِ؟ فإن لم يكن العطاء ثمرة مَحبّة خالِصة، وبالمجّان، فلن يكون عطاء، بل يكون ديْنًا يستوفيه الدائن، في أوّل مُناسَبة، لأنّ المحبّة لا تطلب أَجْرًا، كما أن أصحاب المروءة يعلمون متى وكيف ولماذا يساعِدون. وقد قيل: «من أراد أن يعرف طريقة العطاء، فليَضَعْ نفسه في موضع المحتاج». والآن، هيّا بنا إلى العمل.

وراحتا تتنقّلان من زهرة، إلى زهرة، ومن فَنَنٍ إلى فَنَن، مُطلِقتين طنينًا كأنّه لحن الفوز بالمُنى، بل كأنّه دعوة للّحاق بهما إلى حيث العسل الشهيّ.

وتابعتْ «سميرام» كلامها قائلة: أمّا المُعادَلة التي قالت عنها «يو» إنّها، وَحَلّها، في جُعْبتي، فهي صَهْر الأنانيّة والكره والحقد، في بوتقتي، فيزول كلّ أثر للشرّ، من نفوس جميع البشر، فيَسْعدون ويُسْعدون، ولكان كوكب الأرض أجمل لو نَمَتْ فيه بزور المحبّة، وتفتّحتْ براعمها عن ثمار تهزم جحافل البغض المُعشِّشة في نفوس بعض المُنتشِرين على سطحه، ولكانت أختنا «براتا» نشرتْ ألويتها في كلّ الضمائر والقلوب، وها إنّني أفسح لها في المجال لِتَتْلُوَ تقريرها.

ثمّ قالت، مُداعِبة أختها الصغرى: ولٰكنْ، بعد أن تكون حبيبتنا «سلمبا» قد أسمعَتْنا لحنًا، ربّما كانت قد أخذَتْه من مركز «عِلْم الأدْوار»، أليس كذٰلك، يا صاحبة الصوت الملائكيّ؟

فلم يَسَعْ «سلمبا» إلّا أن آستجابَتْ لرغبة «سميرام»، فأنشدَتْ، مُشيدَةً بها:

المروءة، الطّهارة، الطّموحْ
والجمالُ الغضّ، والعقلُ الذّكيّ
حكمةٌ، حريّةٌ، حُبٌّ سَموحْ
يا سميرامُ، حَواها رَمْزُكِ

ولمّا آنتهت «سلمبا» من أداء اللحن، هتفت النجمات لها إعجابًا، لِجَمْعِها الدعائم الثماني في هٰذين البيتين من الشِّعر.

ثمّ قالت «الكبرى» لـ «براتا»: هاتي، ما عندكِ، يا رمز الحرّيّة.

في هٰذه اللحظة، حصلَتْ مفاجأة، إذ تَقدّمتِ «الظريفة»، وقالت للكبرى، بلهجة العاتب المؤنِّب: أظنّ أنّكِ نسيتِ، أو تناسيتِ أنّني كنتُ أنا أيضًا، وبِسَماحٍ منكِ، على كوكب الأرض؛ أفلا يحقّ لي أن...

فخافت «الكبرى» مِن لَذْع لسانها السَّليط، وقالت لها: حسنٌ، حسنٌ، لا تغضبي. قولي لنا ما هو حَصادك، يا «ظريفتنا» المحبوبة.

فضحك الجميع لِخَوف «الكبرى» من لسان «الظريفة»؛ أمّا هٰذه، فقالت للكبرى، مازِحة، هٰذه المرّة: لو لم تتداركي الأمر بلباقة، لما كنتِ نجوتِ مِن سخطي.

فقالت إحدى النجمات: أسرِعي، أسرعي، يا «ظريفتنا»، وأنعِشي الجوّ بِمَرَحِكِ.

فقالت «الظريفة»: أوّلًا، لقد بحثتُ كثيرًا، في رحلتي هٰذه، عن خطيب حُلْوٍ، ذكيّ، شجاع، كخطيب «يو»، فلم يُسعِدني الحظّ بالعثور عليه...

فآنطلقتِ الصَّيحات، وعَلَتِ الأصوات: هٰذا هو الـ «أوّلا»، فماذا عساه يكون الـ «ثانيًا»؟

قالت: الـ «ثانيًا» لن يكون مزحة، بل هو أمر جِدّيّ، آستوقفني، وأحببتُ أن أنقله إليكنّ.

وتابعتْ كلامها قائلة: ثانيًا: لقد دخلتُ مَخادِعَ الصبايا، وسَمعتُ أحاديثهنّ، وقرأتُ ما خَفِيَ من أفكارهنّ. هٰذه تحلم بشابٍّ نَظَرَ إليها نظرة خَفَقَ لها

قلبها البريء، وتلك تُفضي لـرفيقـة لهـا، بمـا فـي صدرها من عَتْب على مَن تُحِبّ، وتلك تتميَّز غيظًا من حبيب تَغاضى عنها وهَجَرهـا، وهـاتيـك تَلعـن مُتزلّفًا هَـزئ بها، لاعبًا بِمَصيرها، إلى كلّ ما هنالك من مَشاكِـل وعُقَـد وحُلـول، تحصـل بيـن الأَحبّة. وقد سمعتُ إحداهنّ تقول لأُمّها، بكلّ براءة، مُشيرة إلى أحدهم: لماذا يرتعش قلبـي، يـا أمّاه، وأشعر بشيء من اللّهَب يَكْوي خَدَّيَّ، كلّما نظر إليّ هٰذا الشابّ بعينيه البرّاقتين؟

فقالت الأُمّ: إنّها اللّغة الصامتة التي تتناجى بها القلوب، يا آبنتي؛ إنّه الحُبّ.

فقالت الفتاة، وقد علا جبينَها الاحمرارُ: أأكون عاشقة، إذًا؟

فقالت أُمّها: وما الضَّير في أن تَعشقي مَن سيتولّى أَمْركِ، فيُسعِدكِ وتُسعِـديـه، وتعيشـا معًـا، بسلام ومحبّة. إنّها شريعة الله وسُنّة الطبيعة، يا آبنتي، ولٰكن، عليكِ أن تكوني حكيمة في آختيار هٰذا

الزوج، ولا تنسَيْ أن تُصغي إلى نصائح مَن خَبَروا الحياة قبلكِ، وهم مِن مُريدي سعادتكِ، ولا تُؤْخَذي بفكرة ثورة الأبناء على والديهم ليستقلّوا عنهم، تبعًا لما يُسمّونه حضارة وتقدُّم العصر. صحيح أنّ الحُبّ يَنبع من أعماق صاحب العلاقة، وأنّ عليه أن يُصغي إلى نبضات قلبه أوّلًا، ولٰكنّ، هناك مَن يـؤخَـذون بالمَظاهِر، ويُخدَعون بنوايا المُتزلّفينَ، فيغيب عنهم ما هو في صميم وجوهر ما يسعَوْن إليه، فتحصل، أحيانًا، المُفاجآت وتتبخّر الآمال. أنا أنصحكِ، يا بُنيَّتي، بأن لا تستسلمي إلى هَوًى عابِر، بل عليكِ أن تنظري، بِرَوِيَّة وحكمة، في نصائح مَن تَثقين بأنّهم أُمناء صادِقون، يَتمنّونَ لكِ السعادة؛ وبعدَ ذٰلك، قرِّري ما تشائين، وإلّا فستندمين حيث لا ينفع الندم.

فآرتفع صوت يقول لها مازحًا: وهل تَبعتِ أنتِ هٰذه النَّصيحة، أيّتها «الظريفة»، أم إنّكِ «طبيب يُداوي الناس وهو مريض»؟

فقالت لها، جادّة: لو أنّني تَبعتُ هٰذه النصيحةَ، لما كنتُ بقيتُ عانسًا حتّى اليوم. فإيّاكِ أن تسيري على خُطايَ، يا صغيرتي.

ثمّ عادت «الظريفة» لتتابع كلامها، فقالت: أمّا ما راقَني كثيرًا، في رحلتي هٰذه، فهو أنّني، لدى مروري في أحد الأودية النضِرة، سمعتُ ورقةَ بَنَفْسَجٍ تقول لأمّها: ما هٰذا المكان المُنفرِد الّذي نَلْطو فيه، يا أُمّاه؟ إنّنا لا نرى، هنا، سوى هٰذه الأعشاب النديّة، ولا نستأنس بسوى هٰذه العصافير الصغيرة الهاربة من العواصف والأمطار، فلا نسمع سوى شَدْوِها وزقزقتها، حتّى لكأنّنا قد كُتِب علينا أن نكون أَسْرى هٰذه الزاوية، لا نرى ما في الدنيا من مَحاسِنَ وآفاقٍ وأجواءٍ، وأنظارنا لا تبلغ المدى البعيد، لأنّها تصطدم بجدار هٰذا الجبل. أُنظري إلى تلك «الزيزفونة» الكَثّة الأضلاع، المُتربّعة على رأس تلك التّلة، كيف أنّها ترى الدنيا، وتغازل أشعّة الشمس المُبتسِمة لها؛ أُنظري كيف أنّها تترنّح تيهًا

ودلالًا، كلّما داعب النسيم أعطافها، وكيف تنظر بمئات العيون إلى الآفاق البعيدة الرَّحْبة؛ إنّها طليقة، حرّة، وليست مِثْلنا، مُنزوية تحت هٰذه الصخرة، مع أنّها شرّيرة تغرز أسنانها وأظافرها في كلّ مَن وما يَمَسُّها؛ إنّها عَدُوّة الخير، وكم من مرّة، رأيتُها تنظر إلينا بسخرية وشماتة وكبرياء، مُتعالِية علينا. إنّ هٰذا ليُؤلِمني ويُنكّد عَيشي.

قالت الورقة هٰذا، وترنّحتْ قليلًا، وكأنّها لم تَعُدْ تقوى على الانتصاب، ومالَتْ نحو الأسفل مُنكمِشة على نفسها.

في هٰذه اللحظة، سُمِعت تنهّدات كالحشرجة، تصدر من ورقات أُخريات، فخافت الأمّ على بناتها من الألم الناتج من الشعور بالوِحدة، فقالت «للثائرة»: على رِسْلِكِ، يا آبنتي، إنّكِ تبالغين بتشاؤمكِ، وتَجْلُبينَ الأسى لنفسكِ ولأخواتكِ، ولقد أخطأتِ كثيرًا في ما قلتِه عنّا وعن تلك «الزيزفونة» المسكينة؛ فنحن، هنا، نعيش بدلال وأمان، قلَّ أن

يتمتّع بِمِثْلهما غيرنا. تذكّري كيف يتعبّدنا مَن يُحِبّ الجَمال، ويستهويه النظر إلينا، وتذكّري بأيّ قَدْر من الليونة والعناية يُعامِلنا مَن يرغب في تنشُّق عِطْرنا. إنّنا نفحة من نِعَم جنّة الله على الأرض؛ ما أتى أحد على ذِكْر نبل الأخلاق، إلّا جعل من آسمنا رمزًا للاستقامة والتواضُع؛ إنّنا ننشر، في جوّنا، البهجة والارتياح النفسيّ، لكلّ مَن يقع نظَره علينا، وهٰذا، لعَمري، مِن دَواعي آغتباطنا وتقدير الناس لنا، لأنّنا، بهٰذا، نكون قد قُمْنا بجزء من الرسالة الخَيِّرة التي أسندَتْها الطبيعة إلينا. وكَم مِن مرّة، كنّا تقدمة مُبارَكة في المعابد، وكم مِن مرّة كنّا هديّة لائقة لحبيب أو نَسيب، ولَسْنا نعيش في سِجْن، كما تتوهَّمين، بل إنّنا، كما تَرَيْنَ، نتنقّل بين القصور والأكواخ والمَعابِد.

وتابعت «الأمّ» كلامها قائلة: أمّا تلك «الزيزفونة» التي قلتِ عنها إنّها عدوّة الخير، فإنّها ليست كذٰلك، يا بُنَيَّتي؛ إنّها، بما سَمّيته أسنانها

وأظافرها، تُحاوِل أن تُبعِد عنها كلّ مَن يريد بها شرًّا، ومِن حقّها أن تُدافِع عن نفسها، بالسلاح الذي وضعَتْه الطبيعة بين يديها. ثمّ قالت «الأمّ»: صحيح أنّ هٰذه «الزيزفونة» تجعل مِن صَدْرها مهدًا لأشعّة الشمس، ولٰكنّها، أيضًا، عرضة لأن تُجفِّفها وتُميتها هٰذه الأشعّة. إنّها تقضي معظم أيّامها، على رأس تلك التلّة، تحت كابوس هاجس الخوف من أن تقتلعها العاصفة، يومًا. إنّها، دائمًا، في حالة خطر وقلق، لا يُخفِّف من هواجسها، ولا يُؤْنسها إلّا تلك النحلات، وهي تتنقّل على أزهارها الصغيرة ذات الرائحة الذكيّة، والفائدة الطبّيّة: إنّها زينة وسلوى تلك التلّة.

ثمّ قالت تلك الأمّ الحكيمة لابنتها المُتبرِّمة: عليكِ، يا آبنتي، أن تحترمي الجميع، وأن لا تَبني حُكْمكِ، بسرعة، على ما تَرَيْنَه، قبل أن تتعمّقي في درسه؛ فلربّما كانت هناك، أمور تُبرِّر ما لاحَ لكِ أنّه خطأ. وآخِر ما أُوصيكِ به، هو أن لا تكوني

شرسة الطبع، مُتصلّبة في رأيكِ، لئلّا ينبذكِ، لا مُجتمَعك فقط، بل ذَووك، أيضًا؛ إذ لكلّ فرد من أفراد المُجتمَع رأيه وكرامته، كما عليكِ أن تحفظي جميل مَن يَرْعَوْنكِ. أُنظري، تَرَيْ كلّ ما حولنا يُحيطنا بعنايته: هٰذه الصخرة تحمينا من أشعّة الشمس المُحرِقة، وتُهدّئ غضب العاصفة الهوجاء. هٰذه الأعشاب الخضراء تمدّ أمامنا بِساطها الزاهيَ، فتتنقّل عليه الحساسين والبلابل، لاعِبة، مُغرِّدة أعذب الألحان. وهٰذه الساقية الرقراقة تُنعشنا بمائها الفُرات، وتُطرِبنا بوشوشتها وهي تترقرق بين هٰذه الحصى البيضاء. فيجب أن نكون أوفياء لِمَنْ يُقدِّم لنا العون، وقد قيل: «بالشكر تدوم النِّعَم».

ولمّا آنتهت «الأمّ» مِن قَولها هٰذا، سُمِع حفيف ناعم، نَجَمَ عن آحتكاك الأخوات بعضهنّ ببعض، تأييدًا لما قالته أُمّهنّ؛ وإذا بصوت صُغْراهنّ يقول: لا فُضَّ فوكِ، يا أمّنا الحبيبة، سنكون أمينات على ما تَرتئينَ. وقالت الورقة التي كانت تتبرّم: إنّني

أعتذر عمّا قلتُه من كلام يُحرِّض على التطيُّر مِن وَضْعنا، فسامحيني، يا أمّي.

وختمت «الظريفة» كلامها قائلة: حقًّا، لقد كنتُ مُعجَبة بكلّ ما قالَته هٰذه الأمّ العاقلة، ولَكَمْ وَدِدْتُ أن تَسمع هٰذا الكلام وتَعمل به، كلُّ فتاة تُخطِّط لمُستقبَلها. وهٰذا كلّ ما أردتُ أن أقوله. وقد حان الوقت، لِأَترُكَ الكلامَ لأختنا «براتا».

فصفّق الجميع «للظريفة»، آستحسانًا وتكريمًا.

وعادت «الكبرى» تقول لـ «براتا»: هاتي، الآن، ما عندكِ، يا رمز الحرّيّة.

فقالت «براتا»: أظنّ أنّ ما ستسمعنه منّي، سيحثّنا على التعجيل في آستنبات بُزورنا الحُبلى بالعَمْلَقَة.

ففي تَجوالي على سطح كوكب الأرض، رأيتُ أنصاب الحرّيّة ومَشاعِلها مُرتفِعة في أكثر من مكان واحد، فآمتلأ قلبي سرورًا.

ولٰكنّني فوجئتُ في ما بعدُ، بأنّ الذين أقاموها ليتعبّدوا لها قد قَضَوا، وأنّ معظَم الذين خَلَفوهم، يُتاجِرون بآسمها، فيُجرِّحونها ويغتالونها، رغبةً في تحقيق مأرب، غير عابئينَ بمُقدَّساتها وكنوزها، لأنَّهم، كما بدا لي، بعد ذٰلك، عبيدُ مَصالِحهم ورغائبهم وأنانيّتهم؛ وهل يستطيع العبد المغلول اليدين، أن يُحطِّم الأغلال الضاغطة على أعناق المُستعبَدينَ؟

عندما نرى الأقوى يستبدّ بالأضعف، طمعًا، مُتجاهِلًا أنّ آستبداده هٰذا، إنّما هو كَبْتٌ وتجريح للحرّيّة وتدنيس لهَيْكلها؛ عندما نرى هٰذا، نتساءل: هل يُصدِّق أحد أنّ هٰذا المُستبِد الظالم، يحترم الحرّيّة ويستنير بِوَهَج مشاعلها؟

فآرتفع صوت يقول: أما مِن حرّيّة، إذًا، على سطح الأرض، يا «براتا»؟

قالت: بلى، رأيتُها في قصر، يَرْعى أسياده القِيَم الإنسانيّة، ويدينون بأنّ جميع البشر وُلدوا أحرارًا،

وأنّ الفراخ هي التي تَنقفُ بُيوضها بنفسها، لِتَخْرُجَ إلى النور والحياة؛ وأنّ البزور هي التي تشقّ غُلْفها بنفسها، لتنطلق في الهواء، وأنّ الريح تهبّ متى وحيثما تشاء.

كما رأيتُ الحرّيّة تستدفئ في عبّ قرويّ خلعَتِ الطبيعة على كَفَّيه خُشونتها، وعلى عينيه براءتها، وعلى زندَيْه نشاطها، وعلى طِباعه لُيونتها، وفي إيمانه صلابتها، وفي قلبه مَحبّتها وغيرتها.

رأيتُها على بَيْدر، في أطراف مِذْراة تُطلِق أَعِنّة الحنطة في الريح، فينعتق الحَبّ من التبن.

رأيتُها وسمعتُها في رنين جلجل كرّاز يقود القطيع إلى حيث المَرعى والمَقيل.

رأيتها على حدّ مِعْول يُعِدّ مهدًا للشتل والحَبّ.

رأيتُها في تفتُّح البراعم وإشراقة الثمار.

رأيتُها على جَناحَي نَسْر يَرسم، فوق القمم، تارة دوائر لولبيّة تخترق الغيوم، وتارة يُخطِّط طرقات

هوائيّة تُوْصِل إلى ما لا نهاية...

رأيتُها في حَنجَرة بُلبل يُزغرِد في الوادي، ثائرًا على السكون المُمِلّ، مُفتعِلًا مهرجانًا تتمايل، على نبرات أنغامه، أغصان الصفصاف المُتدلّية فوق الغدير، وتبتسم، لتنوّعه، أفنان الدُّلب والعَرْعر، وتتماوج على إيقاع ألحانه، أعشاب ضفّتي الجدول.

رأيتُها في ريشة رسّام، وفي إزميل نحّات يكادان يُحوّلان الجَمادَ حياةً...

رأيتُها في مُخيِّلة شاعرٍ يتنقّل، تارة بين النجوم في أعماق الفضاء، وتارة يَهيم في الأودية، ويتسلّق الصخور إلى القمم؛ حينًا يتناغم مع السواقي، وحينًا يُناجي سُكون الليل، مُخترِقًا حُجُب الغَيب، فينثر أزاهر أفكاره في أجواء العقول فيُنيرها، ويَبني بها قِلاعًا خالدة.

رأيتُ الحرّيّة في نَفْس ثائر يقلب موائد مُرابين يتمسّحون بعرَق ودم الكادِحين، فأكبَرْتُ ثورته دفاعًا عن حقّ مهدور وكرامة مُمتهَنة؛ ولٰكنّني رأيته،

بعد ذٰلك، يتحوّل إلى مارِد، عاتٍ، يُكبّل يديه ورِجْليه بالأغلال التي كان له شَرَف تحطيمها بثورته.

رأيتُ مُرائينَ يَنسون أو يتناسون موقِع الحرمان الذي كانوا فيه قبل أن يَشبعوا، حتّى إنّهم يتوقون إلى آستِعباد الطيور في فضائها، والسِّباع الحُرّة في غاباتها، والناس الآمنينَ في قُصورهم وأكواخهم ومَغاوِرهم، ليجعلوا منهم دُمًى يُحرِّكونها حسبما تقتضيه مَصالِحهم وأطماعهم.

لقد مسخ بعض الناس الحرّيّة وحوّلوها إلى فوضى، في مُدُنهم وبعض دَساكرهم وقُراهم، فقَضَتْ حُرّيّتهم هٰذه، على التقاليد العريقة في الحِشْمة والكَرَم والمحبّة والإخلاص والتآخي، وتمادَوا في الظلم والخداع والفساد والإفساد، فتسبّبوا بالحروب والفِتَن، بكلّ ما تَجرّه من مآسٍ وجرائم وإذلال.

الحرّيّة لا تَرضى بأن ترتفع لها شِعارات زائفة.

الحرّيّة لا ترضى بأن تُقدّم القرابين البريئة في هياكلها الطاهرة.

هياكل الحرّيّة، لا يستحقّ المثول في مِحْرابها، سوى النفوس الأبيّة التي تَحفظ عَهْدها.

الحرّيّة لا تَقبل بِفَرْض رأي ومُحاصَرة إرادة.

الحرّيّة هي انطلاق جريء في سماء الفِكْر، تُشرّع آفاقها على الذكاء، لينطلق في رحاب التقصّي والإبداع.

إنها قفزات شريفة، على مَدارِج الجَمال المُتنوِّعة.

إنّها خَوض في بُحور الكرامة، وتَغلغُل في صحارى سكينة دون سَراب.

تنطلق كالعاصفة، فتجرف الضعف والخنوع والصَّغارة والاستبداد.

ولٰكنّ انطلاقها الجارِف يَتوقّف عند جدار حرّيّة الآخرينَ.

أنتَ حُرّ؟ فعليكَ أن تحترم حرّيّة غيركَ.

بهٰذا تَحكم الحرّيّة الخالصة، وبهٰذا يَحكم العَدْل،

وحُكْم العَدْل ما كان، يومًا، اعتداء على أقداس الحرّيّة، بل كان، دائمًا، نصرًا لها.

ثمّ خَتمت «براتا» كلامها قائلة: ولَكَمْ أودّ أن أَسمع رأي أختنا «مارانا»، بهذا الشأن. فالتفتَتِ الأنظار كلّها نحو «مارانا»، وقالت لها «الكبرى»: نرجو أن تستجيبي لرغبة «براتا» لأنّها رَغْبتنا جميعًا، فنحن نُعوِّل على آرائكِ السديدة، يا رمز الحكمة.

فقالت «مارانا»: لقد أجادَتِ الأخوات الدعائم، في كلّ ما عَبَّرْنَ به عن مُشاهَداتهنّ على كوكب الأرض، وكانت مُلاحَظاتهنّ ونصائحهنّ دقيقة بنّاءة، شأنهنّ في كلّ رسالة يَقُمْنَ بها. وإنّني أخصّ بالذِّكْر، أختنا «الظريفة»، لأنّها كشفَتْ لنا عن أمر كاد يغيب عن بالنا جميعًا، ألا وهو نَبْذ التشاؤم، والتحلّي بالتفاؤل والصبر، في تسيير عجَلَة الحياة المُضطرِبة على طريق السعادة...

وفجأة، علا صوت «الظريفة» قائلًا: أرأيتنّ، يا

شقيقاتي؟ أنا عملاقة أيضًا.

فتعالت الضحكات والأصوات: لا شكّ في عَمْلَقتكِ، يا رمز «الظرافة».

ثمّ عادت «مارانا» إلى مُتابَعة كلامها، فقالت: ولا يغيبنّ عن بال أحد أنّ كلّ الأمور والشؤون والإنجازات المُختلِفة، يجب أن تُسوّى لِتَصُبَّ، كلّها، في قناة إسعاد المُجتمَع البشريّ، وإلّا، فلا معنى للنصائح والاجتهادات.

الخير يعرفه الجميع، والشرّ يعرفه الجميع، أيضًا، فلا ينخدعنّ أحد بالمَظاهِر؛ فَرُبَّ أَمْرٍ يلوح لنا أنّه خير، وفي الواقع، تكون بزور الشرّ كامنة في طيّاته، والعكس بالعكس.

الغرور والأنانيّة والفوضى، هي التي تُبلبِل العلاقات بين البشر. فلنَسْعَ، إذًا، في اقتلاع هذه الآفات مِن نُفوس أصحابها، ولنغرس في قلوبهم وضمائرهم، الطيبة البنّاءة، فهي، وَحْدها، الطريق إلى راحة الضمير والسعادة.

ولقد بَذَرْنا بُزورنا في هذا الجبل الأشمّ. فعلينا أن نتضافر على جَعْله حديقة فريدة تُنبت رجالًا يحملون مَشاعِل رموزنا إلى كلّ صُقْع من أصقاع الكون، ويضعون أيديهم على كلّ ما خلقه الله للإنسان، مِن مَنْظور وغير منظور؛ فيدخلون ضمير الله، ويكتشفون أسرار العناصر الأرضيّة والسماويّة، ويُسخِّرونها لخدمة الإنسانيّة.

وكما أنّ أمّنا الشمس تنشر نورها وحرارتها، على كلّ بقعة من العالَم، وكما أنّ الهواء يستنشقه الجميع، على السواء، هكذا، علينا أن ننشر رموزنا على كلّ الأرض، ليستنير جميع أهلها بنورها، ويستدفئوا بحرارة غيرتها، وينتعشوا بندى حنانها.

وإذا كانت بزورنا لم تَجِد، في بعض النواحي، أرضًا صالحة لها، فعلينا أن لا نيأس، بل علينا أن نُعيد المحاولة، مرارًا، إلى أن ننال غايتنا.

ولا نستسلمنّ لأعداء رموزنا المُتمثِّلين بثمانية: البَلادة، والتَّخاذُل، والتَّقاعُس، والنجاسة، والقباحة،

والبُغْض، والعبوديّة، والبَلاهَة.

فآرتفع صوت إحداهن يقول: ألا تُحدِّدينَ، لنا، ماهِيّة هٰؤلاء الأعداء، يا مارانا؟

قالت: البَلادة هي غياب الذكاء والفطنة، ولهٰذا، يكون البليد عاجِز الرأي، ضعيف الهِمّة، يعيش على هامش الحياة.

والتخاذُل هو الإعراض عن نُصْرة وإعانة الآخَرينَ، وهٰذا أَمْر تَمُجُّه المروءة.

والتقاعُس هو التأخُّر في الإقدام على أمْر كان يقتضي القيام به، وهٰذا جُبْنٌ مُخزٍ.

والنجاسة هي غياب الطهارة والنظافة، وهٰذا مَدْعاةٌ للفساد.

والقباحة، لا أعني بها، هنا، بشاعة الوجه والقَدّ، بل أعني بها بشاعة تَعَمُّد الإتْيان بما يَشين ويَنشر الفساد في المُجتمَع.

أمّا البُغْض، فهو عدوّ الشرائع السماويّة، وزارع

الفتنة والشِّقاق، وهو المِرْجَل المُضطرِب، والصِّلّ الذي تقضي سُمومه على تعايُش البشر.

والعُبوديّة هي الحُكْم على الإرادة الذاتيّة بالانقياد لإرادة الغير، وهٰذا إذلال يُصيب الكرامة وعِزّة النفْس.

والبلاهة هي ضُعْف العقل الذي يتميّز به الإنسان عن سائر المخلوقات.

وختمتْ «مارانا» كلامها قائلة: وَقى الله جميع البشر، كلَّ هٰذه الآفات المُخْزِية.

فشكرَتْها «الكبرى» على نصائحها وإيضاحاتها، وعلى إخلاصها لقضيّة إسعاد المُجتَمَع البشريّ، ثمّ أَثْنَتْ على شقيقاتها الدعائم، وقالت لهنّ: لقد قُمْتُنّ برسالتكنّ خيرَ قِيام، فيحقّ لكنّ أن تسترحْنَ الآن، لنبدأ، بعدَ ذٰلك، بإعداد ما يَلزم لإقامة حفلة كبرى، آحتفاءً بزفاف أختنا «يو» إلى جارنا العملاق جبل البخور؛ فعَيْن الفضاء تستحقّ كلّ تقدير وآحترام. ثمّ نعود إلى عقد آجتماع أخير،

نضع فيه خطّة تكون تتويجًا لما قُمتنّ به، تعميمًا للخير على الأرض.

بعد ستّة أيّام، ضجّ الفضاء بزغاريد الفرح، وأَرسلت النجمات الحلوات، لمعاتٍ هي أَشْبه بالأسهُم الناريّة التي تُطلَق في ليالي الأعياد.

إنّه يوم زفاف عين الفضاء «يو»، وباكورة أعراس النجوم.

وفي جَوّ الغبطة والابتهاج، انطلقت الحناجر تُهنّئ العروسين، وتتمنّى لهما التوفيق والحياة السعيدة.

في اليوم التالي، عادت الدعائم إلى الاجتماع. وبعد أن آفتتحَتِ «الكبرى» الجلسة، طلبَتْ إعادة قراءة ما آتّفِق عليه من آقتراحات وتدابير، فوافق الجميع على ما جاء فيها، وقَرَّرْنَ البدء بالعمل.

وهٰكذا، تجمَّعت الدعائم الثماني: الذكاء، والمروءة، والطموح، والطهارة، والجَمال، والمحبّة،

والحرّيّة، والحكمة؛ وشَكّلتْ هٰذه العملاقات، مزيجًا تَغَلْغَلَ في خلايا جبل البخور، وفي ثنايا جَوّه الصافي العابق بالطِّيب...

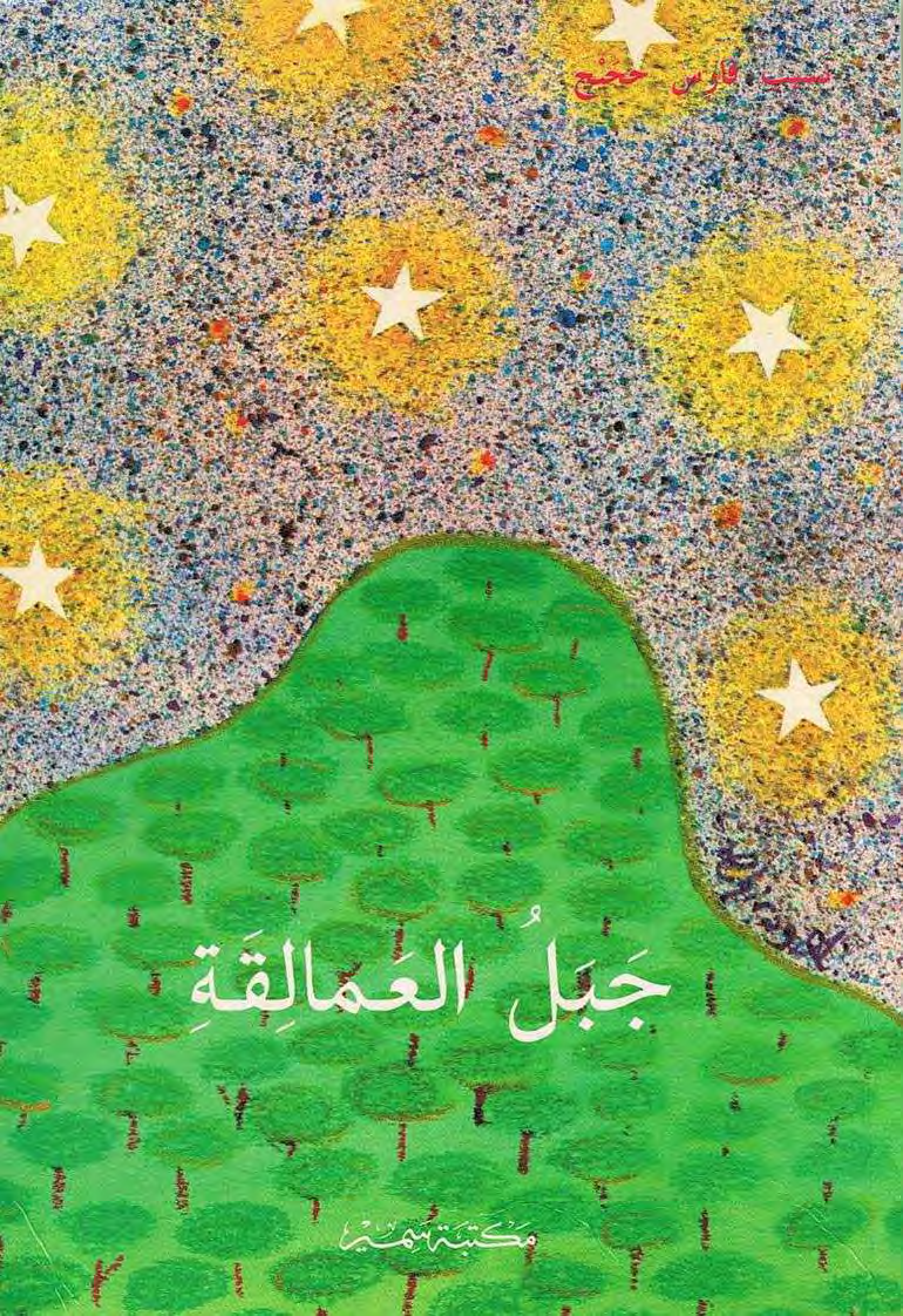
ومَرَّتِ الأيّام...

وأرسلتْ بزور الرموز، طلائع الجنى لتتنامى تحت عين الشمس.

وتَفتَّحَتِ البراعم، وأَيْنَعَتِ الثمار، فآكتُشِفَ عِلْم الفَلَك، وتَهادَتِ السُّفن على صدور البحار، وأَطلَّتِ الأبجديّة، وتلألأ الزجاج الشفّاف، وآزدهى الأُرجوان على أكتاف الملوك وقُدود الأميرات. وبدأ الحديث عن «الذَّرَّة»، وعن حياة أُخرى بعد الموت، وآزدَهرَت جامعات الفلسفة والعلوم، وآرتفع لواء الديمقراطيّة وآحترام آراء وإرادة الشعوب. وآنتشرت المِلاحة والتجارة في كلّ أنحاء الدنيا، فكان آبنُ جبل البخور، المُكتشِف والمُخترع والعالِم والمُعلِّم وناقِل الحضارة والعِلْم إلى العالَم أجمع.

وما إن آنتشرَتْ هٰذه الأعمال العملاقة، حتّى

هَلَّلتِ النجمات، وآفترَّتْ ثُغور العملاقات، وآهتزَّتْ أعطاف «ديدا» عندما قالت لها «سميرام»، لقد تَحقَّق حَدْس أختنا الكبرى، فوَصَلَ إنسانٌ إلى قرص أُمّنا الشمس، وأخذ شيئًا مِن غُباره، ونَثَرَهُ بَرَكة ونورًا في أنحاء الكَون؛ وسَمِعَتْها «عادا» فآبتسمَتِ آبتسامة الفوز، وأشرقَ وَجه «بوشا»، وشَمَّرَتْ «إيلاتا» عن ساعِدَيْها، ورَفعَت «براتا» راية هٰذا الحَدَث العظيم، وآغتبطَتْ «سلمبا» الصغيرة، وزَغردَت «الظريفة»، وعانقت «يو» عملاقها، إذ رأيا أبناءهما وأحفادهما، وقد أَيْنَعَتْ فيهم ثمار العَمْلقة؛ فآنطلَقوا من شواطئهما ليُعلِّموا ويُثقِّفوا ويُحضِّروا العالَم. وهٰذا ما حَمَلَ المُفكِّرينَ على تَسْمِيَةِ جَبَل البخور، لبنان، «جَبَل العَمالِقة».


جَبَلُ العَمالِقَةِ
مَكتَبة سَمير